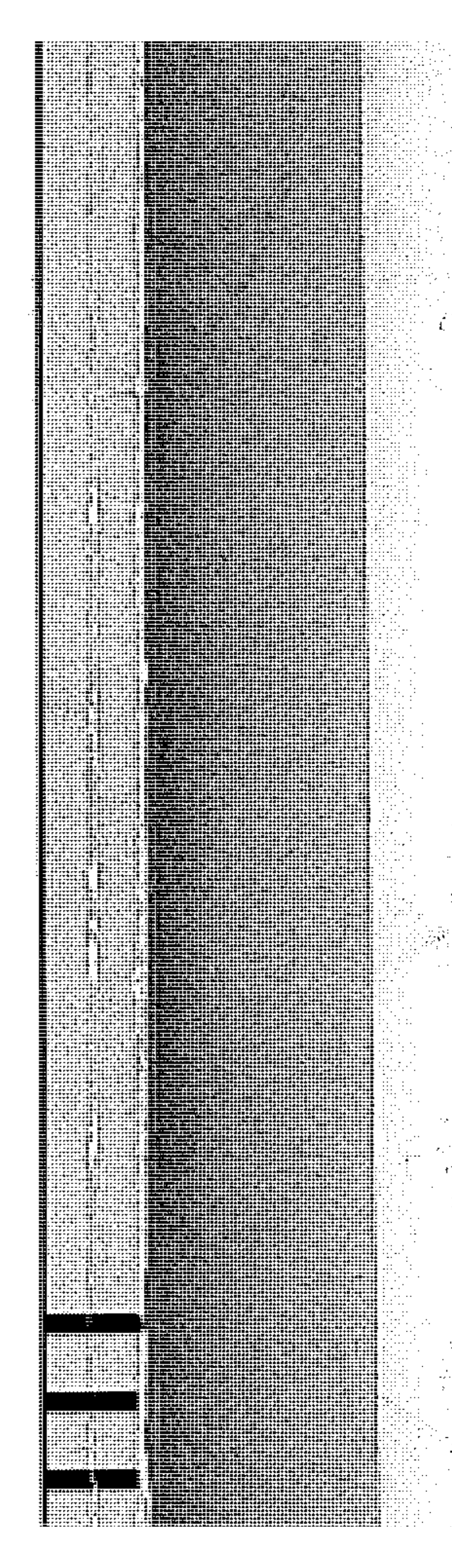
مقدمة في
أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم

تأليف

محمد العبده

طارق عبد الحليم

دار الأرقم
- الكويت -



مقدمة

في أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م

دار الأرقم

للنشر والتوزيع

ص . ب : ٤٣٢٣١ ـ حولي ـ الكويت

مقدمة في

أسباب اختلاف المسلمين وتفرقهم

تأليف

محمد العبده

طارق عبد الحليم

قال تعالى :

﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ (الأنعام ١٥٣) .

قال رسول الله ﷺ :
(ذروني ماتركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم) (رواه مسلم) .

(إذا قرأت القرآن فلا تحسب أن المخاصمة كانت مع قوم انقرضوا ، بل الواقع أنه مامن بلاء كان فيما سبق إلا وهو موجود اليوم) .

ولي الله الدهلوي .

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلامضل له ومن يضلل فلا هادي له ونصلي ونسلم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعد .

فإن المتأمل في واقعنا الإسلامي المعاصر يجد نفسه ــ رغماً عنه ــ نهباً لمشاعر عديدة تهديه إلى البشاشة والإستبشار تارة ، وتدفعه إلى الحزن والألم تارات .

فهناك صحوة إسلامية لاشك فيها ، ليس هناك أدل عليها من تسارع ضربات الطغيان للمسلمين في كل مكان وازديادها وكثافتها ... فإنه كلما ازداد الفعل كلما ازداد ردّه بما يساويه ... هذا في عالم المادة أما في عالم العقيدة فإنه كلما ازداد الفعل كلما تضاعف ردّه أضعافاً كثيرة وفي عالم المادة أيضاً قد يوقف رد الفعل ذلك الفعل ويمنعه أما في عالم العقيدة فإن رد الفعل لا يزيده إلا قوة وصلابة وليس هذا من قبيل الإنشاء والتبجيد والمزايدة بالألفاظ ... بل إن التاريخ شاهد على صحته ، ونظرة فيما قصّه الله عز وجل علينا في كتابه العزيز من قصص دعوة الإسلام على مر تاريخ ابن آدم ــ منذ أنزل أبوهم آدم بالتوحيد حتى دعوة خاتم النبيين ﷺ ــ نرى مصداق ماقررناه من أن الإبتلاءات والمحن ليست إلا بوتقة كريمة تصهر فيها إرادة المسلمين لتخرج منها أصلب عوداً وأعمق

تجربة مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ (١) .

وهذا ماغفل عنه الطغاة الذين يكيلون الضربات بقسوة وعنف ، وهم لايشعرون بأن الله سبحانه قد جعلهم فتنة للذين آمنوا يمحصهم بهم ، وليميز الخبيث من الطيب ، وأن تلك الضربات ستعود عليهم وبالاً يوم أن يورث الله سبحانه الأرض لعباده المتقين كما وعدهم سبحانه إذ قال : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ (٢) .

وهذه الصحوة الإسلامية ليست وليدة أيامنا الحاضرة هذه ، بل إن جذورها تمتد إلى مابعد سقوط الخلافة العثمانية في نهاية الربع الأول للقرن الحالي ، حيث أحدثت الهزة التي أسقطت كرسي الخلافة ، صحوة في نفوس مجموعة الدعاة الأوائل حملوها لمن بعدهم جذوة متقدة في النفوس الحية التي تأبى إلا أن تحيا حياة الإسلام ولاترضى بغيره بديلاً .

إلا أن الأحزان التي تحيط بواقع الحياة الإسلامية المعاصرة كثيرة أيضاً . فإنه لاتكاد تقرُّ عينك بما تراه من اتساع الحركة الإسلامية ، وتكاثف الكم الإسلامي نسبياً حتى ترى من خلف تلك الظواهر مايحزنك ، ويملأ نفسك أسى وحسرة فالإسلاميون مشتتون لايجمعهم فكر واحد ولامنهج موحد ، ولاينتظمهم صف معاً

---

١ ـــ آل عمران ١٧٣ .

٢ ـــ الصافات / ١٧١ ـــ ١٧٣

لاختلاف أفكارهم ومناهجهم ، قد وقعوا في الفرق والإختلاف الذي نهى الله تعالى عنه وحذر عباده منه فقال : ﴿ ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ (١) .

وكان من نتيجة هذا الضعف وهذه الفرقة أن استهان بهم الطغاة ، ورماهم عدوهم عن قوس واحدة أصابت منهم الصميم ، وراحت تقطف من خيرة شبابهم ماشاء لها كل بضع سنوات ، فما دفعهم ذلك إلى مراجعة مناهجهم المتعددة المتفرقة وإلى إعادة النظر في خطواتهم المضطربة المشتتة وصدق قول الله عز وجل : ﴿ ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ (٢) .

ولانقول ذلك ليخبو الأمل في نفوس المحبين لدعوة الإسلام ، العاملين عليها فاليأس من روح الله أول مدراج الكفر ، ولكن أول خطوات الشفاء تشخيص المرض تشخيصاً دقيقاً ، ومعرفة العلة معرفة تامة محيطة بكل جوانبها ، ثم بناء العلاج على ذلك التشخيص والتحديد بما هو مناسب له ومؤثر فيه .

فما هي أسباب هذا الضعف وهذه الفرقة والتشتت ؟

لاشك أن لهذا الأمر أصولاً وجذوراً بعيدة تمتد من منتصف القرن الأول الهجري وحتى حاضرنا هذا ، إلا أننا سنقتصر في هذه التقدمة على ملاحظة الأسباب الحاضرة القريبة دون البعيدة ، مرجئين الحديث عن أصول وجذور التفرق إلى مواضعها من البحث إن شاء الله تعالى .

---

١ ـــ آل عمران / ١٠٥ .

٢ ـــ الأنفال / ٤٦ .

هناك عاملان أساسيان أديا إلى ضعف وتفرق الإسلاميين خاصة عامل داخلي وعامل خارجي .

أما العامل الخارجي فهو ناشيء مما يكاد لهم من مكر ، وما يكال لهم من ضربات أدت إلى ضعفهم وعدم تمكنهم من إبراز دعوتهم والجهر بها وعرضها على العامة من الناس ليدخل فيها من شاء الله تعالى له الهداية ، فظلت القلة العددية النسبية لهم ــ إذا قورنت بالقاعدة العريضة لجماهير الناس الغافلة عن الهدى المنتسبين إلى الإسلام انتساباً دون وقوف على حقيقته ومقتضاه ــ ظلت قلتهم العددية تلك سبباً في ضعفهم ، وظلت سمتهم الرئيسية ــ في غالب الأحوال ــ هي الإستخفاء بأمر الدعوة حسب ما أداه إليه اجتهادهم خوف البطش والتنكيل من أعدائهم المتربصين .

وكان من لوازم ذلك ونتائجه أمور عدة نذكر منها أن الأمر قد اقتصر على التلويح بالدعوة دون التصريح بها صافية غضة متكاملة عقيدة وعملاً كما أرادها الله عز وجل ، كذلك التصريح ببعض ماتشتمل عليه الدعوة المباركة من مفاهيم وتوجيهات ، وكتمان أكثر ما ينبني على تلك المفاهيم والتوجيهات الربانية من أمور هي نتائج حتمية لها، وهذه النتائج تنتظم مناحي الحياة كلها سواء الإجتماعية أو الإقتصادية أو السياسية .

والدعوة المباركة في أول طريقها ، كالغرسة الصغيرة تحتاج إلى الرعاية والعناية وإلى الدفيء والغذاء والكمون ، وهي بعد بذرة ضعيفة قد وضعتها يد العناية تحت طبقة الأرض ، بعيدة عن الأيدي والأبصار ، لتمنع عنها غائلة القوى التي تعمل على القضاء عليها في مهدها حتى تكبر شيئاً فشيئاً ، ثم تبرز للعيان وتقوم على ساق

وتتعرض للشمس والهواء فيشتد عودها وتنمو فروعها وتطرح ثمارها بما ينفع الناس ﴿ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار﴾ (١) .

ولابد بعد الكمون من تفتح وانطلاق .. وهو مالم تمكن منه العوامل الخارجية المحيطة بالدعوة ، ممأأدى إلى ضعف الاسلاميين وانكماشهم داخل دائرة محدودة لايتجاوزونها .

وقد كان من نتائج هذا الجو المحيط بالدعوة الإسلامية أن تضاربت المفاهيم عن الإسلام وحدوده ، والإيمان ودرجاته ، وكثير من القضايا الإعتقادية التي تمس جوهر التوحيد ، كما انبنى على ذلك تضارب المفاهيم العملية التي تستمد شرعيتها من القواعد النظرية ، فظهرت البدع القولية ، والعملية وباضت وفرخت وأخرجت لنا مايراه الدارس للحركة الإسلامية المعاصرة من تفرق وتشتت واختلاف بين أبنائها منعت من اتحاد كلمتهم تحت لواء واحد وقيادة واحدة تعطى لها صفقة اليد واللسان ، ويرفع الله بها الإختلاف المذموم .

أما العامل الداخلي فهو المؤثر الرئيس ــ كما نحسب ــ فيما آلت إليه حالة المسلمين خلال القرون الماضية من تفرق وتأخر ، ونعني بالعامل الداخلي تلك الأمور التي تنشأ داخل المجتمع نفسه نتيجة حركته الذاتية ونتيجة ما يواجهه من أحداث ومواقف وأوضاع سياسية أواقتصادية أواجتماعية أو علمية ، فالتعصب والهوى والجهل والقول بغير علم واتباع الرؤوس الجهال والعجب بالرأي كل ذلك إنما ينشأ من داخل المجتمع نتيجة ظروفه الخاصة وأوضاعه الداخلية .

١ ــ الفتح / ٢٩ .

ومجتمع الإسلاميين اليوم أشبه مايكون بالمجتمع الإسلامي الكبير في حركته خلال القرون الماضية ، وما يسوده من تفرق وتشتت إنما هو صدى لذلك التفرق القديم الحديث الذي ساد المجتمع الإسلامي في حركته عبر التاريخ .

ولانقول ذلك بمجرد الإستقراء التاريخي والواقعي للأحداث ، بل هو مما دل عليه الشرع ، وأنبأ به سيد المرسلين عليه صلوات الله وسلامه فيما رواه عنه الإمام أحمد بسنده عن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ : (يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها قال : قلنا : يارسول الله أمن قلة بنا يومئذ قال : أنتم يومئذ كثير ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن قال : قلنا : وما الوهن ؟ قال : حب الحياة وكراهية الموت) (١) .

ولا بد لنا من بعض التفصيل لتلك الجملة ليتضح المقصود ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد سنَّ سنناً كونية — طبيعية واجتماعية — تجري على كافة خلقه دون تحيز أو تميز ، هذه السنن تربط المجتمعات في حركة صعودها وهبوطها ، وتقدمها وتأخرها وتحكمها بما لايدع منها فكاك . يقول الأستاذ جودت سعيد :

(ولاشك أن تركيب المجتمع ، وغنى فئة فيه وافتقار أخرى، أمور خاضعة لقوانين وسنن اجتماعية إذا خفيت عن عيني الإنسان اشتبهت عليه الأمور وتداخلت في ذهنه المشكلات ، وظن أن القضية فوضى لاضابط لها ولا عدل فيها ولاتصدر عن حكيم عليم ..

١ — ج ٥ / ص ٢٧٨ .

إن الذي عرف قوانين المجتمع يمكن أن يستخدم وسائل مختلفة لقياس صلابة المجتمع ، وسلامة شبكة علاقاته ، كما يمكن أن يستعين بمختلف التحاليل التي يجريها على الأحكام التي يصورها المجتمع على تفسير الأحداث ، ليحدد نوع الخلل الذي يعانيه المجتمع . إن الخبير بسنن المجتمعات يمكن أن يدرك ، ويتخذ إجراءات في تغيير نظرات المجتمع.. .) (١) .

وقد دلنا الله سبحانه على هذه السنن فيما أنزله على رسوله ﷺ فقد قال تعالى مجملاً : ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ لاتبديل لخلق الله ﴾ (٣) .

ثم فصل تعالى من تلك السنن ما يهدي الناس إلى فهم تلك الحقيقة العظمى والإعتبار بها والعمل بموجبها .

قال تعالى : ﴿ إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا مابأنفسهم ﴾ (٤) . وقال تعالى : ﴿ لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون ﴾ (٥) . فالسنة المذكورة في الآية الأولى جاءت بلفظ مطلق هو (قوم) أي قوم والسنة في الآية الثانية جاءت بلفظ مطلق أيضاً هو (أمة) أي أمة .

وقد ربط القرآن الكريم والأحاديث الشريفة بين السنن الطبيعية والسنن الإجتماعية في عديد من الأمثلة تقريباً للافهام ، وتقريراً لحقيقة تلك العلاقة التي منشؤها اتحاد كليهما في مصدره ، حيث

١ — حتى يغيروا مابأنفسهم ص ٢١ ، والحق أنه كان من الأوفق أن يضرب الكاتب المثل بالقوة والضعف إذ أن الفقر والغنى يخضعان للسنن الإلهية الكونية كما يخضعان للسنة الإجتماعية المتعلقة بالأسباب والمسببات .

٢ — الأحزاب / ٦٢. ٣ — الروم / ٣٠ .

٤ — الرعد / ١١. ٥ — يونس / ٤٩ .

أن كليهما من سنن الله تعالى التي لاتتبدل ، والتي تحكم في عمومها الخلق من حيث هو خلق طبيعي كالمادة أو ماديّ روحيّ كالبشر .

قال ﷺ : (ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى من عضو تداعي له سائر جسده بالسهر والحمى) رواه البخاري .

وعن النعمان ابن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا : لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجو ونجوا جميعاً) رواه البخاري .

يقول الأستاذ جودت : (والرسول عليه الصلاة والسلام يضرب مثلاً آخر تمتزج فيه السنة المادية بالسنة الإجتماعية ، في مثل السفينة وركابها ، وعلاقة سنن المركب بسنن المادة تارة ، وسنن البشر تارة أخرى ، هذا المثل يذكره الرسول ﷺ ليبين أن للمجتمع قانوناً يترابط به ليحميه من الغرق .

من السهل إمكان إدراج نتائج الخرق الذي يحدث للسفينة ، ولكن ليس بمثل هده السهولة إمكان إدراك نوع الخرق الذي يحدث للمجتمع)[1] .

ثم نضرب مثالاً يبين أن السنن الإجتماعية التي سنها الله تعالى لاتختص بأمة من الأمم ، بل هي تربط العمران البشري بقوانين واحدة لاتتخلف . يقول ابن خلدون : (والدولة في مركزها أشد مما يكون

١ ـــ حتى يغيروا / ٢٥ .

في الطرف والنطاق وإذا انتهت إلى النطاق الذي هو الغاية عجزت واقصرت عما وراءه ... ثم إذا أدركها الهرم والضعف فإنما تأخذ في التناقص من جهة الأطراف ولايزال المركز محفوظاً إلى أن يتأذن الله بانقراض الأمر جملة فحينئذ يكون انقراض المركز ، وإذا غلب على الدولة من مركزها فلا ينفعها بقاء الأطراف والنطاق بل تضمحل لوقتها ... وانظر هذا في الدولة الفارسية كان مركزها المدائن فلما غلب المسلمون على المدائن انقرض أمر فارس أجمع ولم ينتفع يزدجرد بما بقي بيده من أطراف ممالكه وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشام لما كان مركزها القسطنطينية وغلبهم المسلمون بالشام تحيَّزوا إلى مركزهم بالقسطنطينية ولم يضرهم انتزاع الشام من أيديهم فلم يزل ملكهم متصلاً بها إلى أن تأذن الله بانقراضه ، وانظر أيضا شأن العرب أول الإسلام لما كانت عصائبهم موفورة كيف غلبوا على ماجاورهم من الشام والعراق ومصر لأسرع وقت ثم تجاوزوا ذلك إلى ماوراءه من السند والحبشة وافريقية والمغرب ثم إلى الأندلس فلما تفرقوا حصصاً على الممالك والثغور ونزلوها حامية ونفد عددهم في تلك التوزيعات وأقصروا على الفتوحات بعد ، وانتهى أمر الإسلام ولم يتجاوز تلك الحدود ، ومنها تراجعت الدولة حتى تأذن الله بانقراضها وكذا كان حال الدولة من بعد ذلك كل دولة على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة وعند نفاد عددهم بالتوزيع ينقطع لهم الفتح والاستيلاء ، سنة الله في خلقه)[1] .

وقد غابت تلك الحقيقة العظمى عن عقول الإسلاميين ، فلم ينفذوا إلى الأسباب الحقيقية وراء مشاكلهم ، وبالتالي لم يستطيعوا أن يضعوا الحلول السليمة المدروسة لها حسب سنن الله تعالى وقوانينه ، فنشأ التخبط واضطربت الخطوات ، وتفرقت الجهود .

١ ـــ مقدمة ابن خلدون / ص ١٦٢ .

ومثال مما دل عليه الله سبحانه من سنن تهدي المسلمين خلال دروب الحياة الدنيا ، من خلال ماوصى به في مفردات التشريع قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ [١] .

فهذه الآية الكريمة وإن كانت أمراً مباشراً للمسلمين بإعداد العدة والقوة ــ بكل أنواعها سياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية ــ لملاقاة الكافرين إلا أنها تدل بمفهومها على أن إعداد العدة سبب إلى النصر على أعداء الله تعالى قد أُمرنا باتخاذه ، والإخلال به مؤد بطريق اللزوم إلى الإخلال بنتائجه من عدم إمكان النصر والتفوق والعلوّ .

فإن مما قدره الله سبحانه وتعالى ربط الأسباب بنتائجها ــ على وجه العموم فالإتيان بالسبب على الوجه الأكمل ينشأ عنه المسبب والنتيجة بإذن الله تعالى ، فإن لم تنشأ النتيجة فلابد من وجود خلل في الأخذ بالسبب وان توهمنا غير ذلك . وانظر إلى عبرة السيرة النبوية في غزوتي بدر الكبرى وأحد ترى مصداق ماقررناه واضحا، ففي غزوة بدر جاء رسول الله ﷺ بما استطاع من عدة وعدد يتكافأ مع الغرض الأصلي الذي خرج لأجله مع أصحابه ــ وهو ملاقاة قافلة أبي سفيان لاغير وقد قدر الله سبحانه غير هذا اللقاء ، فعلم رسول الله ﷺ بذلك النقص في الأخذ بالسبب ، فشاور أصحابه من الأنصار حتى يكونوا على يقين عند اللقاء ثم أكمل ﷺ النقص في العدة المادية ــ الذي حدث دون علم منه أو رغبة إليه ــ بالدعاء لله تعالى حتى أنه بالغ في الدعاء مبالغة دفعت الصديق أبا بكر إلى أن يقول : (يانبي الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ماوعدك) [٢] .

---

١ ــ آل عمران / ٢٠٠ . ٢ ــ تهذيب السيرة لعبد السلام هارون / ص ١٦٥ .

والدعاء سبب من الأسباب التي جعلها الله سبحانه للتوصل بها إلى الأهداف بجانب سائر الأسباب المادية التي لابد منها ، فتم المقصود وحصلت النتيجة وانتصر المسلمون.

والإعتماد على الأسباب المادية كلية لايكون إلا مع انعدام الثقة بالله تعالى ، بل هو خلع مستتر لربقة الإسلام ، بينما إغفال الأسباب المادية بالكلية إعراض عن سنن الله تعالى في الكون والحياة وإغفال لأوامره إجمالاً وتفصيلاً بل الأمر كما قال ﷺ لصاحب الناقة (إعقلها وتوكل) [١] وهو جارٍ على مقتضى الجمع بين قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعوني استجب لكم ﴾ [٢] .

أما في غزوة أحد فعندما أغفل المسلمون اتباع الأمر ، وفرطوا في الحرص واختل الأخذ بالسبب ، انهزموا أمام أعدائهم ، وجعله الله تعالى درساً لاينسى لهم وللمسلمين من بعدهم أنه لادالة خاصة لأحد من البشر أو أمة من الأمم ان لم تتقيد بما سنه الله تعالى من سنن لاتتبدل .

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله تعالى :

(والأمور لاتمضي في الناس جزافاً ، والحياة لاتجري في الأرض عبثاً ، فهناك نواميس ثابتة تتحقق لاتتبدل ولاتتحول ، والقرآن يقرر هذه الحقيقة ، ويعلمها للناس ، ، كي لاينظروا الأحداث فرادى ، ولايعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصيلة ، محصورين في فترة قصيرة من الزمان وحيز محدود من المكان ، ويرفع تصوراتهم

---

١ ــ جزء من حديث رواه الترمذي ، انظر : ابن الاثير جامع الأصول ١١ / / ٧٩٢ .
٢ ــ غافر / ٦٠ .

لارتباطات الحياة ، وسنن الوجود فيوجههم دائماً إلى ثبات السنن واطراد النواميس ويوجه أنظارهم إلى مصداق هذا فيما وقع للأجيال قبلهم ودلالة ذلك الماضي على ثبات السنن واطراد النواميس) (١) .

والسنن تستلزم تدبر ماكان من أحداث ماضية ، والاعتبار بتجارب الغير سواء من المسلمين أو غيرهم من الأمم والملل وذلك ــ كما يقول ابن خلدون ــ (حتى تتم فائدة الأقتداء في ذلك لمن يرون في أحوال الدين والدنيا) (٢) وقد قال تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ... ﴾ (٣) .

فإن التدبر في عاقبة الماضين ، والنظر فيما جرى للغابرين ، لهو عبرة حية من الأولين للآخرين ، حتى نستفيد منها ونتلافى ماوقع لهم نتيجة خطأ أو زلل .

ولافرق هنا بين الاعتبار بتجارب الأمم السابقة التي ضلَّت ضلالاً تاماً ، وأخذها الله بذنوبها فأنزل بها العذاب الدنيوي قبل الأخروي ، وبين الاعتبار بتجارب المعاصرين من الإسلاميين الذين خاضوا معترك العمل الإسلامي من منطلقات فيها خطأ أو انحراف ــ فكريّ ــ فأدى بهم إلى نكبات ومحن وأدت بالعمل الإسلامي ذاته إلى التقهقر والتأخر ، لأن السنن هي السنن ، والعوامل التي أدت إلى انحلال وتفرق المسلمين ، هي بذاتها ــ أو قريباً منها ــ التي أدت إلى انحراف الأمم السابقة وهو مدلول حديث رسول الله ﷺ الذي أخرجه الصحيحان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :

---

١ ــ في ظلال القرآن ج ٥ / ص ٢٩٥٠ .
٢ ــ المقدمة / ص ٩ .
٣ ــ الروم / ٤٢ .

قال رسول الله ﷺ : (لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟) .

يقول الأستاذ جودت سعيد تعليقاً على الحديث :

(ومثل هذا النظرإلى الموضوع ، هو الذي نفتقده الآن وعلينا أن نكتسبه ، لأن هذه النظرة القرآنية هي التي تجعل المسلم قادراً على الإعتبار الذي يلح عليه القرآن .

فأمامنا تجارب القرون الماضية ، تجارب كثيرة تظهر فيها سنن تغيير الأقوام التي خضع لها المسلمون أيضاً ، كأي قوم من الأقوام .

وفي الواقع ان هذا النظر القرآني يجرد الإنسان من ملابساته ، ويرجعه إلى أصله المجرد الذي يخضع للسنن) (١).

ومن سنن الله تعالى التي لابد من اعتبارها للوصول إلى الأهداف حسن التدبر والتخطيط ، والبعد عن التجريدات النظرية واتباع قوانين الملاحظة والتجربة العلمية وعدم التواكل والغفلة ، والحذر الجريء، والإقدام في مواطنه ، والاحجام حيث تدعوا المصلحة الشرعية إلى غير ذلك مما لايدعوا المقام إلى الاستطراد في تفصيله إذ يهدف البحث إلى غير الهدف الذي ننشده هنا ، وإنما أردنا أن نستدل على أن إهمال تلك السنن الكونية الثابتة ، وعدم اعتبارها أدى إلى الضعف والإنحطاط والتشتت والتفرق ، ولايزال سبباً فيما يعانيه الإسلاميون حتى اليوم من بعد عن الهدف وتشتت في النظر وتأخر في الأساليب، ولاسبيل إلى الوصول إلى الهدف المرجو إلا بالنظر بذلك المنظار الذي يجعل المسلم يدرك خضوعه لقوانين الله المبثوثة في الكون

---

١ ــ (حتى يغيروا مابأنفسهم) ص ٣٣ .

كما يخضع لشرائعه المنزلة في كتبه .

يقول الأستاذ جودت : (ولكن المسلم لاينظر عادة إلى مشكلة المسلمين بهذا المنظار الذي يجعل المشكلة الإسلامية خاضعة لسنن عامة تشمل البشر جميعاً . فهو يرى أنه ينبغي أن تكون مشكلة المسلمين غير خاضعة لما يخضع له سائر البشر في مشكلاتهم ، ويفعل المسلم هذا حين يفعل ، بروح من التسامي والتقديس . ذلك أنه يظن أن رفع شأن المسلمين إنما يكون بعدم خضوعهم للسنن التي يخضع لها سائر البشر) (١) .

فمنهج النظر الأصلي هو الذي جعل سلفنا الصالح يصل إلى الذروة العليا ويتقلد أزمة الأمور في مشارق الأرض ومغاربها ، وجعل مسلمي اليوم لايكادون يملكون أمر رقعة الأرض التي يعيشون عليها ـــ نستغفر الله ـــ بل يكادون أن يُنازعوا في مساكنهم وأهليهم ! فيا لها من فتنة تدع الحليم حيراناً .

ثم نعود مرة أخرى إلى التفرق والإختلاف الذي هو منشأ الضعف والإنحلال ـــ والذي يدور عليه بحثنا خاصة ـــ فنقول :

إن كتاب الله تعالى قد ضرب لنا من الأمثلة عن اختلاف من سبقنا من الأمم الكثيرة ، كما أبان لنا في بعضها سبب هذا الإختلاف .

قال تعالى : ﴿ ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد

---

١ ـــ السابق ص ٣٢ ، وكلام الأخ جودت صحيح بشكل عام ، مع اعتبار أن الله يدافع عن الذين آمنوا إذا قاموا بواجبهم الحقيقي فهنا لهم مزية في صراعهم مع الكفار .

ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ وما تفرق الذين اوتوا الكتاب إلا من بعدماجاءتهم البينة ﴾ (٣) .

وقد دلت هذه الآيات على أمرين جامعين :

أولهما أن الإختلاف في الأمم السابقة كان مع وجود العلم بينهم وليس في حالة فقده كما قال تعالى : ﴿ من بعدما جاءهم البينات ﴾ وقال تعالى : ﴿ إلا من بعد ماجاءهم العلم ﴾ (٤) .

ولايكون ذلك إلا عن أحد الطريقين : إما التأويل أو التبديل .

والثاني : هو تحذير الله سبحانه وتعالى للمسلمين من عدم التفرق مثلما تفرق الذين من قبلنا ، وذلك بالتصريح تارة كما في قوله تعالى : ﴿ ولاتكونوا كالذين تفرقوا ﴾ أو بالتلميح أخرى كما في قوله تعالى : ﴿ لست منهم في شيء ﴾ فإن ذلك كالنص على عدم التفرق والتشتت ، إذ أن من يتبرأ منه رسول الله ﷺ يكون عمله منهياً عنه بطريق اللزوم .

ورغم ذلك الأمر الشرعي الإلهي بعدم التفرق والإختلاف ، فقد جاء الأمر القدري التكويني بخلاف ذلك ، ودلت الأحاديث الصحيحة الصريحة بما يؤكد أن الخلاف واقع قدراً ـــ لامحالة ـــ بين هذه الأمة .

---

١ ـــ آل عمران / ١٠٥ .   ٢ ـــ الأنعام / ١٥٩ .

٣ ـــ البينة / ٤ .

٤ ـــ الاستثناء بإلا بعد النفي يفيد التأكيد على ذلك المعنى وهو أنهم ضلوا بعد أن جاءهم العلم .

فمن ذلك مارواه محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، أو اثنتين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة) [١] .

وروى مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه أقبل مع رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه من العالية حتى إذا مر بمسجد بني معاوية دخل ، فركع فيه ركعتين ، وصلينا معه ، ودعا ربه طويلاً ثم انصرف إلينا فقال : (سألت ربي ثلاثاً فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة ، سألت ربي : أن لايهلك أمتي بالسّنة [٢] فأعطانيها . وسألت ربي : أن لايهلك أمتي بالغرق فأعطانيها . وسألته أن لايجعل بأسهم بينهم فمنعنيها) [٣] .

وفي حديث ثوبان الذي رواه مسلم : (سألت ربي لأمتي أن لايهلكها بسنة عامة وأن لايسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ـــ أو قال : من بين أقطارها ـــ حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً) [٤] .

يقول الامام ابن تيمية تعليقاً على هذه الأحاديث :

(وهذا المعنى محفوظ عن النبي ﷺ من غير وجه ، يشير إلى أن الفرق والاختلاف لابد من وقوعهما في الأمة ، وكان يحذر

١ ـــ رواه أبو داود : كتاب السنة ٤ / ١٨٧ ، ورواه ابم ماجة والترمذي وقال عنه حسن صحيح .
٢ ـــ السَّنة : الجدب والقحط العام .
٣ ـــ صحيح مسلم / ٢٢١٦ ـــ كتاب الفتن ط. دار الفكر .
٤ ـــ رواه مسلم / ٢٢١٥ ـــ كتاب الفتن ط. دار الفكر .

أمته منه لينجو من الوقوع فيه من شاء الله له السلامة ، كما روى النّزال بن سَبْرة عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت رجلاً قرأ آية سمعت النبي ﷺ يقرأ خلافها فاخذت بيده فانطلقت به إلى النبي ﷺ فذكرت ذلك له ، فعرفت في وجهه الكراهية ، وقال : كلاكما محسن ، ولاتختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا) [١] .

ولقائل أن يقول : فإن كان ماذكرتم حقاً من أن القدر الكوني جاء بوقوع الخلاف والتفرق وأخبر به رسول ﷺ خبراً جازماً من ضرورة وقوعه ؛ فما الفائدة من التنبيه عليه والتحذير منه إن كان لابد واقعاً ؟

فنقول وبالله التوفيق : إن إيضاح ذلك يكون بثلاثة أوجه :

أولها : أنه يجب أن يميز المسلم بين الأمر الشرعي ، والقدر الكوني تمييزاً واضحاً لأهمية هذا المقام في فهم الكثير مما أشكل فهمه على من خفي عليه هذا الموضع فإن إرادة الله سبحانه وتعالى تشتمل على مايحبه ويرضاه أو على مايبغضه ولايرضاه ؛ فالإرادة الكونية هي الإرادة التي يقع بمقتضاها كل مافي الكون من أمور سواء وافقت شرع الله أو خالفته وسواء جاءت على وفق رضا الله أو بغضه . والإرادة الشرعية هي الإرادة التي لايقع بمقتضاها إلا مايحبه الله تعالى ويرضاه من عباده ، وهي ـــ من ثم ـــ الموافقة للأمر والنهي فالأمر والنهي موافقان للإرادة الشرعية ، إذ الأمر يعني طلب الله سبحانه فعل مايرضاه ويحبه ، والنهي يعني طلب من الله سبحانه عدم فعل مايبغضه .

[والله سبحانه قد بين في كتابه في كل واحدة :

١ ـــ اقتضاء الصراط المستقيم / ص ٣٥ ، والحديث رواه مسلم .

من (الكلمات) و (الأمر) و (الإرادة) و (الاذن) و (الكتاب) و (الحكم) و (القضاء) و (التحريم) ونحو ذلك ماهو دين موافقة لمحبة الله ورضاه وأمره الشرعي ، وماهو كوني موافق لمشيئته الكونية .

مثال ذلك أنه قال في (الأمر الديني) : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى﴾ وقال تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ ونحو ذلك وقال في (الكوني) : ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ وكذلك قوله : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول ﴾ على إحدى الأقوال في هذه الآية .

وقال في (الإرادة الدينية) : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ﴿يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ ﴿ مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ﴾ .

وقال في (الإرادة الكونية) : ﴿ ولو شاء الله مااقتتلوا ولكن الله يفعل مايريد ﴾ وقال ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ﴾ .

وقال نوح عليه السلام : ﴿ ولاينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾] . (١)

١ ــ مجموع الفتاوي لابن تيمية ج ١٠ / ص ٢٤ .

فإذا وضح هذا المقام أمكن التمييز بين كلا الأمرين وهو أن الفرقة والاختلاف واقعان لامحالة وهي الإرادة الكونية القدرية ، وأن الأمر الشرعي هو النهي عن الوقوع فيهما ولاتعارض بينهما كما تبين .

الثاني أن الدعوة إلى مذهب السلف الصالح لهذه الأمة وبيان فساد ماشذ عن هذا المنهج يؤدي إلى تكثير الفرقة الناجية المعتصمة بالحق . روى مسلم في صحيحه قال رسول الله ﷺ : (لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لايضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك) .

وفي حديث الفرق قال ﷺ ــ في إحدى الروايات ــ (إحداهماالناجية) فالطائفة الظاهرة على الحق الناجية المنصورة هي التي تتبع ماكان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه وأهل السنة والجماعة من بعدهم ، فوجبت الدعوة إلى ماهم عليه تكثيراً لسوادهم ، وإظهاراً لهم على من عاداهم وتقليصاً لحجم من خالفهم من أهل الأهواء والبدع وكفى بذلك داعياً لنصرة مذهبهم والدعوة إليه .

يقول ابن تيمية رحمه الله :

(ولايقال : فإذا كان الكتاب والسنة دلّا على وقوع ذلك فما فائدة النهي عنه ؟ لأن الكتاب والسنة أيضاً قد دلّاعلى أنه لايزال في هذه الأمة طائفة متمسكة بالحق إلى قيام الساعة ، وأنها لاتجتمع على ضلالة ففي النهي من ذلك تكثير لهذه الطائفة المنصورة نسأل الله المجيب أن يجعلنا منها) (١) .

الثالث أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل مفروض على

١ ــ اقتضاء الصراط المستقيم ص / ٤٤ .

كل مسلم حسب القدرة والطاقة ، بشرط أن لايؤدي إلى فساد اكبر منه بطبيعة الحال كما تبين في الأصل ــ بل الواجب على كل مكلف أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب طاقته حتى يتقي العذاب كما في قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ۝ فلما نسوا ماذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴾ (١) .

يقول ابن كثير في تفسير الآية :

(يخبر الله تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت ، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ... قال تعالى: ﴿ فلما نسوا ماذكروا به ﴾ أي فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا ﴾ أي ارتكبوا المعصية ﴿ بعذاب بئيس ﴾ فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين ، وسكت عن الساكتين ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لايستحقون مدحاً فيمدحوا ، ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم : هل كانوا من الهالكين أو من الناجين على قولين (٢) .

وقد عرف الواقع الإسلامي بداية التفرق مع حلول النصف الثاني للقرن الأول الهجري ٣ ، وبالتحديد في أواخر خلافة علي رضي

١ــ الأعراف / ١٦٤ ــ ١٦٥ .
٢ ــ تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٥٨ ــ ط. مكتبة الرياض الحديثة .
٣ ــ راجع الفتاوي لابن تيمية ١٢ / ٢٠٨ .

الله عنه ، فقد ظهرت بدعة (الخوارج) أولا كفرقة سياسية دعت إلى الخروج على علي رضي الله تعالى عنه ، وقد أدى بها الأمر إلى أن انتهجت نهجاً معيناً في النظر للنصوص حتى تصل إلى مفهومها السياسي الذي كانت تدعوا إليه من ضرورة الخروج على علي ومعاوية معاً ، ومن ثم تبلور لها منهج فكري محدد اتسم بظاهرية شديدة وغلو شنيع في النظر للنصوص مع كونهم كانوا متشددين في العبادة وصدق فيهم قول رسول الله ﷺ . روى زيد بن وهب قال عن علي ابن أبي طالب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء ولاصلاتكم إلى صلاتهم بشيء ولاصيامكم إلى صيامهم بشيء يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم لاتجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية) رواه مسلم وأحمد .

ثم نبعت بعدها الرافضة الذين تخفوا وراء ستار التشيع لأهل البيت ، وابتدعوا في الدين مالم ينزل به الله سلطاناً ــ مما سيتضح لنا أثناء دراستنا التفصيلية لهذه الفرق ــ فغيروا وبدلوا وردوا الأحاديث الصحيحة واتخذوا طريقهم إلى ذلك الطعن في صحابة رسول الله ﷺ كأبي هريرة وغيره ...بل تطاولوا إلى رمي الإمامين الراشدين أبا بكر الصديق والفاروق عمر بالكفر ــ عياذاً بالله ــ تحت دعوى أنهما اغتصبا من الإمام علي حق الخلافة والولاية بعد رسول الله ﷺ ، بل منهم من غلا أكثر من ذلك فادعى الألوهية لعلي رضي الله عنه ــ كالسبأية ــ فحرّقهم علي جزاء لهم على ذلك فقالوا : (لايحرق بالنار إلا ربها !) (١) .

١ ــ راجع الفتاوي لابن تيمية / ج ١٣ ــ ص ٢٠٨ .

فكان (الرفض) (كالخروج) مثالاً لما يؤدي إليه التطرف والغلو من تنكب للصراط المستقيم ، وانحراف عن الطريق القويم .

يقول ابن تيمية :

(وأول بدعة حدثت في الإسلام بدعة الخوارج والشيعة حدثتا في أثناء خلافة أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب فعاقب الطائفتين أما الخوارج فقاتلوه فقاتلهم ، وأما الشيعة فحرق غاليتهم ، وطلب قتل عبد الله بن سبأ فهرب منه وأمر بجلد من يفضله على أبي بكر الصديق وعمر ، وروي عنه من وجوه كثيرة أنه قال : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر — رواه البخاري) [1] .

وقد ظهرت كذلك فرق عديدة بدأت في أولها بصبغة فكرية ثم انقلبت إلى الوجهة السياسية كالمعتزلة الذين طغوا وبغوا على من خالفهم حين تمكنوا من مقاليد الأمور أيام الخليفة المأمون العباس فأجبروا العلماء على الإقرار بعقائدهم الفاسدة من ادعائهم خلق القرآن وأنهم أهل العدل لانكارهم القدر ، وأهل التوحيد لتعطيلهم صفات الله الثابتة له وماابتدعوه من أن المسلم العاصي مخلد في جهنم في منزلة بين المنزلتين ؛ الكفر والإسلام ! وغير ذلك كثير مما استهواهم إليه الشيطان فطغوا وبغوا وكانوا بذلك أول من خالف مبادئهم الداعية إلى الحرية الإنسانية في الإعتقاد والعمل .

ثم كانت بدعة الإرجاء وهي الطامة التي أتت على الوادي فنشرت الفساد في المجتمع الإسلامي لما ادعته من أن المسلم هو من نطق بالشهادتين لفظاً دون أي التزام بالعمل ! وإن خالف أصول الشريعة وعقائدها وناقض التوحيد بفعله ، وجهل أصل دين الأنبياء

١ — الفتاوي لابن تيمية ج ١ / ص ٢٧٩ .

الذي تطابقت عليه دعوتهم من افراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية بل زعموا أنه لايضر مع إيمان معصية كما لاينفع مع كفر طاعة ! وأن المسلم سيدخل الجنة بلا ريب دون أن يرد الجحيم مهما أتى من أفعال ، ففتحوا باب الفساد والاستهتار بالشعائر والشرائع ، وجرأوا الناس على حدود الله تعالى ، فكانوا دعاة فسق وانحلال بما نشروا من مبادىء .

ونحن في هذه التقدمة لانقصد إلى استقصاء أسماء الفرق التي نبعت في الإسلام ، فإن ذلك ماسيدور عليه البحث تفصيلاً خلال دراستنا للفرق الكبرى المؤثرة في الواقع الإسلامي — كالخوارج والمرجئة والروافض والمعتزلة والصوفية والقاديانية والبهائية ... — ولكنها مجرد عجالة تنقلنا إلى ذلك الواقع الأليم الذي عاشه المسلمون ممزقين بما جنته عليهم تلك الفرق من تشتت وضعف .

وإن مايهمنا في هذه العجالة أن ننبه إلى أمرين هامين بالنسبة لما نشأ من فرق في الإسلام .

أولهما : ان كل فرقة من تلك الفرق قد ألبست الحق بالباطل فأخرجت للناس بدعها وضلالها تحت لافتات إسلامية ، وفي قوالب إسلامية ليغتر بها العامة فيتبعوهم معتقدين أنهم على الكتاب والسنة مقيمون ، ولمذهب السلف الصالح متبعون .

يقول ابن القيم في إغاثة اللهفان بعد كلام عن التحيل الباطل :

(...وإنما غرضه التوصل بها إلى ماهو ممنوع منه ، فجعلها سترة وجنة يتستر بها من ارتكب مانهى عنه فأخرجه في قالب الشرع .

كما أخرجت الجهمية التعطيل في قالب التنزيه .

وأخرج المنافقون النفاق في قالب الإحسان والتوفيق والعقل المعيشي .

وأخرج الظلمة الفجرة الظلم والعدوان في قالب السياسة وعقوبة الجناة .

وأخرج الروافض الإلحاد والكفر والقدح في سادات الصحابة وحزب رسول الله ﷺ وأوليائه وأنصاره في قالب محبة أهل البيت والتعصب لهم وموالاتهم .

وأخرج فسقة المنتسبين إلى الفقر والتصوف بدعهم وشطحهم في قالب الفقر والزهد والأحوال والمعارف ومحبة الله ونحو ذلك .

وأخرجت الإتحادية أعظم الكفر والإلحاد في قالب التوحيد وان الوجود واحد لا اثنان وهو الله وحده فليس هاهنا وجودان خالق ومخلوق ولارب ولاعبد بل الوجود كله واحد وهو حقيقة الرب .

وأخرجت القدرية إنكار عموم قدرة الله تعالى على جميع الموجودات ، أفعالها وأعيانها في قالب العدل ، وقالوا : لو كان الرب قادراً على أفعال عباده لزم أن يكون ظالماً لهم فأخرجوا تكذيبهم بالقدر في قالب العدل .

وأخرجت الخوارج قتال الأئمة والخروج عليهم بالسيف في قالب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وأخرج أرباب البدع جميعهم بدعهم في قوالب متنوعة بحسب تلك البدع فكل صاحب باطل لايتمكن من ترويج باطله إلا بإخراجه

في قالب حق) [١] .

فهذا المعنى ينبغي أن يتعمقه الإسلاميون في هذا العصر المضطرب المائج بالفتنة القولية والفعلية ، حتى لايخدعهم عن دينهم خادع ولايزيف لهم الأصول الإسلامية الصحيحة مزيف ، فينقادوا ورائه تابعين غافلين ، وهم يحسبون أنهم مهتدون .

والثاني أن كل فرقة من تلك الفرق قد جاءت بما يضاد الأخرى فالخوارج تشددوا وتنطعوا حتى أخرجوا المسلمين من دائرة الإسلام وجعلوا مرتكب المعصية كافراً مخلداً في النار وأشاعوا اليأس والقنوط من رحمة الله .

بينما المرجئة تساهلوا وتسيبوا حتى أدخلوا في الإسلام كل منتسب إليه وإن ناقض التوحيد بأقواله وأفعاله ، وأوجبوا أن يدخل الجنة كل ناطق بالشهادتين دون حساب فأشاعوا الفسق والمعاصي في الناس .

كذلك المعتزلة قد عطلوا صفات الباري سبحانه ، وادعوا العدل والتوحيد بذلك التعطيل ، بينما المجسمة قد أثبتوا له سبحانه جوارح كما هي للبشر تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

والجهمية أنكرت الإرادة الإنسانية مطلقاً وأثبتت القدر وجعلت الإنسان بلا إرادة ولااختيار ، بينما القدرية أطلقوا الإنسان من مشيئة الله تعالى وأنكروا القدر ، وجعلوا الإنسان يفعل مالايشاء الله سبحانه .

---

١ ـــ إغاثة اللهفان ج ٢ ص ٨١ .

فكل فرقة جاءت بطرف النقيض مع غيرها ، وكانوا جميعاً إما مفرّطين أو مفرطين ، وهكذا الإبتداع والغلو والتطرف لايؤدي إلا إلى مناقضة الكتاب والسنة والشريعة الوسيطة التي عليها أهل السنة والجماعة .

يقول محمد عبد الله دراز :

(وإذن فبدلاً من أن يؤكد الأشاعِرة القدرة الإلهية الكاملة التي غاب عن المعتزلة تأكيدها ، وبدلاً من أن يجعلوها في مقابل الحكمة التي حاول المعتزلة إبرازها ـــ نجدهم بدافع الحمية وقلة الحنكة النظرية ـــ قد ألغوا تقريباً الحكمة من أجل القدرة) [1] .

ويقول ابن تيمية : (المتكلمة يجعلون العقل وحده أصل علمهم ويجعلون القرآن والإيمان تابعين له ، وكثير من المتصوفة يذمون العقل ويرون أن الأحوال العالية والمقامات الرفيعة لاتحصل إلا مع عدمه ويقرون من الأمور بما يكذِب به صريح العقل ، وكلا الطرفين مذموم) [2] .

ثم يقول رحمه الله تعالى : وهم (المسلمون) وسط في باب أفعال الله عز وجل بين المعتزلة المكذبين بالقدر والجبرية النافين لحكمة الله ورحمته وعدله . وفي باب الوعد والوعيد بين الوعيدية الذين يقولون بتخليد عصاة المسلمين في النار وبين المرجئة الذين يجحدون بعض الوعيد ومافضل الله به الأبرار على الفجار .

وهم وسط في أصحاب رسول الله ﷺ بين الغالي في بعضهم الذي يقول فيه بإلهيته ، أو نبوة أو عصمة والحاقد منهم الذي يكفر

---

١ ـــ دستور الأخلاق / ص ٦٩ .
٢ ـــ الفتاوي / ص ٣٣٨ .

بعضهم أو يفسقه وهم خيار هذه الأمة) [1] .

ويقول كذلك : (فهم (المسلمون) وسط في توحيد الله واسمائه وصفاته وفي الإيمان برسله وكتبه وشرائع دينه ، لم يحرم عليهم شيئاً من الطيبات كما حرم على اليهود ، ولم يحل لهم شيئاً من الخبائث كما استحلها النصارى ، ولم يضيق عليهم باب الطهارة والنجاسة كما ضيِّق على اليهود ، ولم يرفع عنهم طهارة الحدث والخبث كما رفعته النصارى .

ولاغلوا في الأنبياء والصالحين كغلو النصارى ، ولابخسوهم حقوقهم كفعل اليهود ولم يستكبروا عن عبادته كفعل اليهود ولاأشركوا بعبادته أحداً كفعل النصارى ، وأهل السنة والجماعة في الإسلام كأهل الإسلام في الملل) [2] .

ويقول الشاطبي : (الشريعة جارية في التكليف على الطريق الوسط الأعدل والآخذ من الطرفين بقسط لاميل فيه ...

...فإذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط) [3] .

ولقائل أن يقول : لماذا ندرس تلك الفرق القديمة البائدة التي عفى عليها الزمان ، والتي بادت فيما باد من الأيام ؟! ألم يتناولها الأئمة في كتبهم التي وضعوها عن الفرق والملل والنحل ففندوا تلك الآراء ، وأظهروا باطلها وأبانوا مقاصدها ؟

---

١ ـــ الجواب الصحيح ج ١ / ص ٨ .
٢ ـــ الجواب الصحيح ج ١ / ص ٦ .
٣ ـــ الموافقات ج ٢ / ص ١٦٣ وبعدها كتاب المقاصد .

والجواب : أن هذه الفرق قديمة حديثة في آن واحد ، فإن امتداداتها لاتزال تسري مسرى الميكروب في الجسم ينخر فيه بالداء المهلك ، فنحن لانزال نسمع من هنا وهناك على امتداد رقعة الأرض الإسلامية أفكاراً ممسوخة لآراء المعتزلة يتشدق بها بعض المغرضين من المتعالين الذين استهوتهم حضارة الغرب وأساليبها فادَّعوا أن العقل هو الحاكم في حياة الإنسان وأنه لانجاة ولاعلوّ لنا في خضم التيار الحضاري الحديث إلا باتباع العقل وحده وترك أمور (ماوراء الطبيعة) لتقبع في زاوية من زوايا الوجدان الإنساني كذكرى تغذي (المشاعر وتلهب العواطف في بعض الأحيان ليس إلا ! أما أن تتدخل ...) في طرق حياتنا ومعيشتنا وأساليبنا فهذا هو الخطر والتأخر ، وهم في أقوالهم تلك يتسترون وراء أفكار الإعتزال التي مهدت لهم الطريق إلى ماادعوه من سلطان للعقل على الشرع فأمنوا من الناس أن يُرموا بالإلحاد والزندقة ، واستطاعوا بث أفكارهم الخبيثة المغرضة تحت شعار الإسلام منتسبين إلى الإعتزال صراحة تارة ، وإلى التقدمية تارة أخرى .

كما لانزال نرى أفراخ الخوارج بتنطعهم في الدين وافترائهم على الله والزيادة على شرعه بما لم ينزل به سلطاناً ، فضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ضاقت عقولهم عن أن يجمعوا أطراف الإسلام ويضمّوا أدلته بعضها إلى بعض فيفهموه فهماً سليماً بعيداً عن التطرف ، والزيغ وبعيداً عن ضيق الأفق وانغلاق العقل ، لانزال نراهم بين أظهرنا متمثلين في جماعات تدعوا إلى ضلالها — خلاف بقايا المعتزلة الذين لم يعد لهم وجود كجماعات وإنما كدعوات فردية تظهر من خلال فكر أو كتابات صحفية أو غيرها — و تؤثر في الشباب المخلص المتعطش للعودة إلى دينه وعقيدته . فهم شباب مخلصون ، ولكنهم وقعوا فريسة

الحرفية — كما سيتبين بعد — وشهوة التشدد ، وأنها لشهوة خفية ، حيث يظن المرء أنه وحده على حق ، وكل الناس على باطل !.

وأما الذين يؤمنون بالإمام المعصوم ونائبه ويعتقدون في بشر أنهم يعلمون الغيب ، ويتصرفون في ذرات الكون ، وأنهم لايموتون إلا باختيارهم ! وهم يقدسون العتبات ويطوفون بالأضرحة وأولئك هم الروافض — الضالون المضلون — الذين استطاعوا — لما تقهقرت السنة وعلت البدعة وسادت الفرقة — أن يقيموا لهم دولة قوية بل وأن يهددوا ماجاورهم من دول مجتمعة معاً .

ثم أليس عجيباً أن نرى الشباب المسلم — وهم من الشباب المثقف الجامعي ثقافة علمية أو نظرية — نراهم قد ألغوا عقولهم وغسلوا أدمغتهم وانخرطوا في صفوف (الصوفية) يستمعون إلى الدجل والخرافات والجهل واتباع المنامات ويتركون نور القرآن وضياء السنة والسبيل القويم ليأخذهم الشيخ إلى الفناء والاتحاد ! ويمر بهم في مراحل اليقظة والإنبهار... إلى غير ذلك من مراحل ماأنزل الله بها من سلطان وحقاً إنه لفناء ! فناء العقل والتمييز الذي به كلف الله العباد .

إنه من أعجب العجب أن يقود جاهل هذه القافلة من الشباب الذين أستناموا للراحة من عناء التفكير والدرس والبحث والعمل وسلموا أنفسهم بهذه السهولة إلى رؤوس الشياطين من الإنس ليضلوهم عن سبيل الله . فهل ظنوا أنهم يرتوون روحياً عن هذه الطريق ؟! ربما! المهم أنهم قد تخلوا عن قافلة الجهاد في سبيل الله وإقرار لا إله إلا الله في الأرض ، وهو عين مايبتغيه المغرضون .

وإذن فلابد من الكتاب ولابد من البيان ، ولابد أن يقف الشباب

على أرض صلبة واضحة المعالم ، ولابد أن يؤسس البنيان على قواعد سليمة متماسكة فقد قيل بحق : (لايستقيم الظل والعود أعوج) .

ولن نتخلص من الفرقة ولن نعود إلى القوة ، مالم تتحدد لنا شخصية متميزة محددة بحدود وضوابط هي مااختطه السلف الصالح لنا من منهج قويم يقوّم الإنحراف ويدفع إلى الأمام في كل مجالات الحياة ويعود علينا بخير الدنيا والآخرة .

فدراستنا هذه وإن كانت في ظاهرها دراسة للماضي ، ومراجعة للتاريخ الفكري لفرقة المبتدعة الذين جنوا على ماضي المسلمين ، إلا أنها دراسة حاضرة كذلك [1] من حيث أنها تكشف جذور البلاء الذي يشتت قوى الإسلاميين ويفرقهم شيعاً ، ويجعل بأسهم بينهم شديداً ، بل هي نور يضيء لشبابنا طريقه وسط هذا الظلام الفكري المفتعل الذي لايخدم إلا أعداء الإسلام وشانئيه .

وسنبدأ إن شاء الله تعالى ببيان أسباب الخلاف بين طوائف الملة ــ سواء الداخلية أو الخارجية .

وستقع هذه الدراسة إن شاء الله تعالى في عدة كتيبات تبدأ أولها ــ وهو مابين أيدينا حالياً ــ بدراسة أسباب الخلاف الذي يقع بين طوائف الملة الداخلية والخارجية ، وإيضاح تأثيرها على الشخصية الإسلامية وصياغتها في الماضي والحاضر .

ثم يتبع ذلك ــ بإذن الله تعالى ــ الحديث عن الفرق بشكل متتابع حسب ترتيب ظهورها على مسرح الأحداث ــ ماأمكن ــ

١ ــ يقول ولي الله الدهلوي : وبالجملة إذا قرأت القرآن فلا تحسب أن المخاصمة كانت مع قوم انقرضوا بل الواقع أنه مامن بلاء كان فيما سبق من الزمان إلا وهو موجود اليوم بطريق الأنموذج بحكم الحديث (لتتبعن سنن من قبلكم) الفوز الكبير / ٢٦ .

نبدأها بالخوارج ثم الروافض ثم المرجئة فالمعتزلة والجهمية ... إلى غير ذلك من أسماء كثيرة لعبت دوراً في ماضي المسلمين ، ولاتزال آثارها تعيش بينهم وسنضرب الذكر صفحاً عن فرق بادت واندثرت وطويت صفحاتها واختفت آثارها حتى لايكون البحث نظرياً مجرداً، بل يظل مرتبطاً بحياة الإسلام الواقعية المعاصرة .

ذكرنا فيما تقدم ــ أن العوامل التي أثرت ــ ولاتزال ــ في المسلمين ، والتي أدت إلى تفرقهم وتشتتهم شيعاً ، تنقسم إلى :

١ ــ عوامل داخلية .

٢ ــ عوامل خارجية .

فالعوامل الداخلية هي تلك التي تنشأ في داخل كيان الأمة نتيجة للتركيب الإجتماعي أو الإنحراف الفكري أو الأغراض الشخصية ... إلى غير ذلك من أسباب تؤدي إلى انقسام الأمة على نفسها تعصباً لفريق منها ضد فريق ، أو جهلاً من بعضها بالحق كله أو بعض ، أو بغياً لفئة منها على فئة أخرى إلى غير ذلك كما سنبين بعد بشيء من التفصيل .

والعوامل الخارجية إنما المقصود بها تلك الأسباب التي أثرت في الأمة من خارجها نتيجة لاحتكاكها بمن سواها من الأمم احتكاكاً فكرياً واجتماعياً نتيجة للفتوحات مثلاً ، أو الترجمة ونقل المعارف وقد استتبع ذلك أن دخلت على المسلمين مفاهيم وتصورات وأفكار وعادات غريبة عن الكيان الإسلامي جملة وتفصيلاً ، فعملت عملها في إشاعة التفرق وتشعب الآراء والأهواء بعد أن تعددت الموارد التي يُستقى منها .

وسنبدأ ــ بعون الله تعالى ــ بدراسة العوامل الداخلية ، إذ هي الأولى بالمبادرة والعلاج بين الإسلاميين ، لأنها ناشئة من بين أنفسهم وقد قال تعالى : ﴿ إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم ﴾ (١) .



١ ــ الرعد / ١١ .

الفصل الأول

العوامل الداخلية

تمهيد :

حينما تدرج أمة ــ أي أمة ــ على مدارج النشأة والتكوين ، نجدها وقد استفزت أحسن مافي أفرادها من الإمكانات والمواهب والقدرات في كافة المجالات السلوكية والإجتماعية والعلمية ، كما نجدها كذلك وقد أماتت مابين أفرادها من نزعات هدامة تخرج بها عن طريقها المرسوم ، فنجدها تشق طريقها بقوة وبسرعة حتى تظهر على مسرح الحياة قوية فتية لامجال للضعف والتفرق بين أبنائها. ثم لاتلبث أن تصل إلى طور الإستقرار والتوسع الذي غالباً مايصاحبه الغنى بعد الفقر ، والترف بعد الخشونة ، والحضارة بعد البداوة فتستبدل شيئاً فشيئاً بمشاعر القوة والاندفاع مشاعر الترف والتنعم ، ويبدأ أفرادها في الإنشغال بما بين أنفسهم بدلاً من الإنشغال بمن هم خارج كيانهم من أعداء متربضين ؛ فقد أمنت حدودهم وتوسعت رقعتهم ، فإذا حدث ذلك وابتدع كل صاحب هوى بدعة اتبعه عليها فريق فيتعادون ويتخاصمون ، ثم يتنافرون ويتحاربون ، فيصيبهم الضعف ويطمع فيهم أعداؤهم ، وتبدأ دولتهم في الأفول ، وينقصها الأعداء من أطرافها فيكون ذلك مؤذناً بزوالها وخرابها .

وعلى قدر الدافع الرئيسي الأول الذي اندفع به مؤسسو الأمة وبناتها ، ومدى إخلاصهم وصدقهم في تلبيته يكون مدى توسعها

وانتشارها في المكان ومدى طول بقائها واستمرار آثارها في الزمان .

ولذلك فالدافع الديني هو أقوى الدوافع التي تقوم عليها الأمم وتنشأ بها الدول والإسلام هو أقوى من قدّم — ولايزال — الدافع القاهر لمعتنقيه — بعقيدته الحقة الصافية وكتابه الإلهي المنزّل حتى حملهم على اكتساح العالم المتحضر آنذاك واخضاعه بقوة السيف وبرهان الكلمة ، فعلى السيف والقلم معاً تعتمد الأمم في نشر مبادئها وتوطيد أركانها ودعائمها .

يقول ابن خلدون في (مقدمته) :

(لأن الجيل الأول لم يزالوا على خُلُق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والإفتراس والإشتراك في المجد فلاتزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم فحدّهم مرهف ، وجانبهم مرهوب ، والناس لهم مغلوبون . والجيل الثاني متحول حالهم بالملل والترف من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف والخصب ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به وكسل الباقين عن السعي فيه ، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء وتؤنس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجيل الأول وباشروا أحوالهم وشاهدوا اعتزازهم ...

أما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تفنقوه [1] من النعيم وغضارة العيش فيصيرون عيالاً

---

١ — تفنق : تنعم بعد بؤس ، انظر حاشية المقدمة ٢ / ٥٤٦ نشرة علي عبد الواحد وافي .

على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموّهون بها وهم في الأكثر أجبن من النساء على ظهورها فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته ....) [1] .

وقد مرت أمة الإسلام بتلك الأطوار كلها ، وتمثلت فيها — كما تمثلت في غيرها من الأمم — خاصة بعد انتقالها من الخلافة إلى الملك . فلما أن وصلت إلى حد الترف والتنعم ، وبدأت الدنيا تأتي إلى المسلمين وهي راغمة ، أخذ الشيطان يعمل عمله في نفوس الضعفاء من أبنائها ، مستعيناً عليهم بما في داخل أنفسهم من ضعف تارة ، وبما ورد إليهم من ثقافات تتناقض مع أساس عقيدتهم ومنبع علمهم — القرآن — تارة أخرى ، فظهرت فيهم أمراض فكرية وقلبية فتاكة لاتظهر في أمة إلا أضعفت بنيانها ومزقت أوصالها وفرقت أبناءها . وأهم هذه الأمراض :

١ — اتّباع الهوى
٢ — التعصب
٣ — الجهل

---

١ — المقدمة ص ١٧٠ ، نقلنا هذا النص لابن خلدون لتوضيح فكرة الترف العقلي الذي أصاب المسلمين في بداية القرن الثاني ، وملاحظة ابن خلدون للدول استقرأها من كثير من الدول الاسلامية ولكنها ليست قاعدة عامة في أن الجيل الثالث يتحول إلى الحالة التي وصفها .

وسنحاول دراسة هذه العوامل لنلقي عليها ضوءاً يكشفها للإسلاميين في هذا العصر حتى نخرجها من زوايا العقول التي ربما تكون متأثرة بها دون أن تكتشف حقيقة العلة الكامنة فيها لعدم العلم بها ابتداءاً ، فهذه العوامل ذاتها هي التي مازالت تنخر في جسد الكيان الإسلامي النامي في هذا العصر كما فعلت في كيان الدولة الإسلامية في القديم .

المبحث الأول

إتباع الهوى

الهوى بين اللغة والشرع :

جاء في لسان العرب لابن منظور :

(هوى بالفتح ، يهْوى هَوِياّوهُوياً وهوْيانا وانهوى : سقط من فوق إلى أسفل ، واهواه هو : يقال : أهويته إذا ألقيته من فوق ، وقوله عز وجل : ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ يعني مدائن قوم لوط أي أسقطها فَهَوت أي سقطت .

والهوى : مقصور : هوى النفس وإذا أضفته إليك قلت هواي .

... ابن سيده : الهوى : العشق يكون في مداخل الخير والشر وهوى النفس إرادتها والجمع أهواء .

قال اللغويون : الهوى محبة الإنسان للشيء وغلبته على قلبه .

قال تعالى : ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ .

معناها : ونهاها عن شهواتها وماتدعو إليه من معاصي الله عز وجل وقوله عز وجل : ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ .

قال الفرّاء : معنى الآية يقول : اجعل أفئدة من الناس تريدهم) (١) .

---

١ ـ لسان العرب ج ١٥ / ص ٣٧١ .

وفي تاج العروس :

(قال ابن سيده : يكون في مداخل الخير والشر .

وقال غيره من تكلم بالهوى مطلقاً لم يكن إلا مذموماً حتى ينعت بما يخرج معناه كقولهم هوى حسن وهوى موافق للصواب . والهوى : إرادة النفس والجمع : أهواء) .

مما تقدم نرى أن مادة (هوى) قد وردت بمعنيين أصليين يتفرع عنهما معان أخرى .

أولهما : هوى (منكّر) يعني السقوط من فوق .

وثانيهما : الهوى (مقصوراً بتعريف الألف واللام) : يعني ميل النفس إلى الشيء محبة ورغبة وإرادة .

وقد ورد الشرع بمثل المعنيين .

ففي الأول :

قال تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ [2] أي أسقط فأهوى .

وقال تعالى : ﴿ ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ هلك [3] .

وفي الحديث الشريف :

قوله ﷺ :(... يتصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ثم يهوي به)[4] .

---

١ ـــ النجم / ١ . ٢ ـــ النجم / ٥٣ . ٣ ـــ طه / ٨١ . ٤ ـــ مسند الإمام أحمد

وفي الثاني :

قال تعالى : ﴿ ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ [2]

وقال تعالى : ﴿ وماينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ [3] .

وقال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ [4] .

وفي الحديث الشريف :

ماروواه أحمد بسنده عن أبي برزة قال قال ﷺ :(إنما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى)[5] .

وفي مسلم والمسند :(إلا من أشرب من هواه) [6] .

وفي الموطأ :(يبدؤون أعمالهم قبل أهوائهم) [7] .

وكلا المعنيين متصل بالآخر صلة السبب بالنتيجة .

ففي الحديث روى الدارمي في المقدمة بسنده :

(إنما سموا أصحاب الأهواء لأنهم يهوون في النار) [8] .

---

١ ـــ ص / ٢٦ . ٢ ـــ الفرقان / ٤٣ . ٥ ـــ مسند أحمد ج ٤ / ص ٤٢٠ .
٣ ـــ النجم / ٣ . ٤ ـــ النازعات / ٤٠ . ٦ ـــ أحمد ج ٥ / ص ٣٨٦ ، ومسلم الإيمان / ص ١ ٢٣ . ٧ ـــ ص / ٨٨ . ٨ ـــ ص / ٣٥ .

وفي الأثر عن الشعبي : (إنما سمى الهوى لأنه يهوي بصاحبه) [٩] .

وورد في مفردات القرآن للراغب الأصبهاني :

(الهوى : ميل النفس إلى الشهوة ، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة ، وقيل سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل واهية ، وفي الآخرة إلى الهاوية . والهُوِيّ سقوط من علو إلى أسفل . وقد عظم الله تعالى ذم اتباع الهوى فقال : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ وقال : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ فإنما قاله بلفظ الجمع تنبيهاً على أن لكل واحد هوى غير هوى الآخر ثم هوى كل واحد لايتناهى ، فإذا اتباع أهوائهم نهاية الضلال والحيرة) [١] .

حقيقة الهوى :

نخلص من ذلك كله في تعريف الهوى إلى أنه :

لغة : هو ميل النفس إلى ماتحبه وترضاه .

شرعاً : هو ميل النفس إلى نيل شهوة تلائم طبعها أو اتباع شبهة توافق عقلها [٢] .

---

٩ ـــ ذم الهوى لابن الجوزي وروي مرفوعاً للدارمي في المقدمة .

١ ـــ المفردات / ٥٤٨ .

٢ ـــ مما يجدر ملاحظته في هذا المقام هو ماجرى على أقلام أئمة السلف من اصطلاح (أهل الأهواء والبدع) فقد شاع هذا المصطلح في عهد الصحابة والتابعين وبعد ذلك في الكتب عامة ، فدل ذلك على نوع من التقارن بين الأهواء والبدع وذلك يعني تخصيص لفظ الهوى بأحد معانيه وهو اتباع الشبهات ، أن الهوى يطلق على متابعة النفس على وجه العموم سواء بمعصية أو بدعة . وأما الإصطلاح الدارج في آثار السلف فإننا نلحظ فيه تخصيصاً لمعنى الهوى بما هو مؤد إلى البدعة عامة ، والبدعة تكون نتيجة للأهواء فالذم واقع على السبب أحياناً وعلى النتيجة أحياناً أخرى ، إلا إذا قلنا أن البدع تنشأ عادة من الشبهات والشهوات معاً ، فهنا يكون اصطلاح أهل الأهواء مطابقاً لأهل البدع تماماً .

يقول الشاطبي : (ولذلك سمي أهل البدع أهل الأهواء لأنهم اتبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الإفتقار إليها والتعويل عليها حتى يصدروا عنها ، بل قدموا أهواءهم واعتقدوا على آرائهم ، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك ، وأكثر هؤلاء هم أهل التحسين والتقبيح [١] ومن مال إلى الفلاسفة وغيرهم ، ويدخل في غمارهم من كان منهم يخشى السلاطين لنيل ماعندهم أو طلباً للرئاسة) [٢] .

وتفصيل هذا الكلام أن الهوى قسمان :

نيل شهوة [٣] أو اتباع شبهة .

فصاحب الشهوة يتبع نفسه هواها فيلهث وراء مطمع دنيوي أو غرض شخصي كجاه أو مال أو منصب ، فيقدم مااشتهته نفسه على ماشرعه الله ، ويعرض عن الطيب الشرعي إما تأويلاً للحكم الشرعي أو إغضاء عنه وازوراراً عن اتباعه . وهذا القسم أهون القسمين وأظهرهما لصاحبه وللناس .

والثاني هو الذي يؤتي صاحبه من قبل الشبهات .

---

١ ـــ المقصود بهم المعتزلة ومن جرى مجراهم في تقديم العقل على الشرع سواء أعلن ذلك كالمعتزلة أو أخفاه كالخوارج والمرجئة .

٢ ـــ الإعتصام ٢ / ١٧٦ .

٣ ـــ الشهوة إما محمودة وإما مذمومة ، فالمحمودة هي ماأقرها الشرع وكانت من طريق الحلال كشهوة النكاح والمذمومة مالم تكن عن طريق الحلال كالزنا ، والشهوة المقصود هنا هي المذمومة . انظر الذريعة إلى مكارم الشريعة / ٤٦ .

والشبه العارض لايلزم أن تكون لادليل عليها البتة ، بل يمكننا أن نتصور أقساماً ثلاثة للشبه يُتّبع فيها الهوى ، بالنسبة للدليل الشرعي .

أولها: شبهة لادليل عليها البتة في الشريعة ، وهي تؤدي إلى ماأسماه الشاطبي (البدعة الحقيقية) (١) ومثالها :

ترك الزواج وصيام الدهر وقيام الليل دون النوم ...

وهذا النوع يتبع فيه الهوى بإطلاق إذ لادليل في جملة الشرع ولاتفصيله عليه ويظهر هذا القسم في فرقة (الصوفية) خاصة الذين يشرعون لأنفسهم من الدين مالم يأذن به الله .

وثانيها : شبهة عليها دليل مجمل ولكن ليس عليها دليل مخصوص وهي تؤدي إلى ماأسماه الشاطبي (البدعة الإضافية) (١) .

فهي تتعلق بالسنة من جهة أن الدليل دل عليها جملة .

وهي تتعلق بالبدعة من جهة أن الدليل لم يدل عليها تفصيلاً .

ومثالها التزام صوم ليلة النصف من شعبان .

يقول الشاطبي : (ومن ذلك تخصيص الأيام الفاضلة بأنواع من العبادات التي لم تشرع لها تخصيصاً ، كتخصيص اليوم الفلاني بكذا وكذا من الركعات أو بصدقة كذا وكذا ...

---

١ ـــ راجع (الاعتصام) للشاطبي ج ١ / ص ٢٨٦ وبعدها .

فإن ذلك التخصيص والعمل به إذا لم يكن بحكم الوفاق أو يقصد مثله أهل العقل والفراغ والنشاط كان تشريعاً زائداً) .

وثالثها : الشبهة التي تعرض من قبل المناط ـــ أي تطبيق الواقع على الحكم الشرعي ـــ لامن قبل الدليل ، وهذه كثيراً مايكون عليها دليل شرعي صحيح ، وإنما الأمر فيها أن صاحبها يقدم أمراً شرعياً على أمر شرعي آخر هو أولى منه بالتقدمة ، وأدعى للمصلحة الشرعية وأنسب لمقصد الشريعة دون تمحيص للأدلة ، ولااكتمال القدرة على الترجيح والنظر في الأدلة . ولايكون ذلك إلا باتباع ماتميل إليه النفس في طبيعتها المركوزة ، فإن عند غياب العلم الهادي للحق ، لايكون إلا الهوى المُردي للخلق .

وهذا القسم الثالث هو ماسنركز عليه في الأمثلة التي سنوردها بعد ـــ في جانبي العقيدة والدعوة ـــ في موضعها من البحث ، لانتشارها في الواقع الإسلامي المعاصر ، إلى جانب ماشاع فيه من انحرافات عن الطريق السوي ، ولندرة من تعرض إليها بالبحث والتفصيل .

وكثيراً ماتعرض الشبهة للعقل ، ولاغضاضة في ذلك فقد كانت الشبهات تعرض للصحابة رضوان الله عليهم ، ويحدثون بذلك رسول الله ﷺ فيهديهم إلى الطريق السديد في ذلك الأمر كما روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

(لايزال الناس يتساءلون حتى يقولوا هذا الله خالق كل شيء فمن خلق الله فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله) واللفظ لمسلم .

فالفرق بين شخص وآخر ينشأ من معالجة الشبهة ومدى تأثيرها عليه .

● فالشبهة التي تصادف نفساً معتدلة متوازنة ـــ لاتميل إلى رأي ولاتتبنى اتجاهاً قبل أن تعرض الأمر على كتاب الله وسنة رسوله لتأخذ منهما مايهديانها إلى الحق ـــ لايكون لها تأثير في صاحبها .

ـــ فهو إذن ينفيها عن نفسه بسرعة إن كانت من المتشابهات التي لاسبيل إلى معرفتها وهو مادل عليه حديث رسول الله ﷺ السابق .

ـــ وأما أن يفزع إلى العلم ويهتدي بنور الكتاب والسنة في كشف ظلمات الشبهة قبل أن يتغيّم بظلامها على العقل فتمنعه من رؤية الحق .

● والشبهة التي تصادف نفساً ذات ميل معين أو طابع غلّاب ، يجعلانها تميل إلى مايوافق طبعها وتتحكم في العقل لقوة ذلك الميل أو الطبع وسيطرته والنفوس تختلف في طابعها الأصلي وجبلتها الفطرية .

ـــ فنفس قوية وثابة طموحة تميل إلى العنف وتعشق الصراع .

ـــ ونفس هادئة تؤثر الدعة والإطمئنان على العنف والصراع .

ـــ ونفس ملتوية مقصرة تميل إلى الغموض ولاتقبل الوضوح .

ـــ ونفس متغلّقة شاردة تكره الانضباط وتتفلت من كل قيد .

تتولد الشبهة وتصادف ميل النفس فتدفع العقل إلى إقرارها ، ويقدم عليها الدليل تلو الدليل ، ويؤوّل مايخالفها ، ويرد من الأدلة

مايعاكسها ، ثم يدافع عنها اللسان ويتخذها صاحبها علماً عليه يدافع عنه في كل حين ومقام .

وهذا القسم من الهوى هو أخطر القسمين على صاحبه وعلى الناس .

ذلك أن الهوى فيه يتخذ سبيله في النفس والعقل عجباً ، فلايكاد يدري صاحبه بما هو مقدم عليه من تقديم بين يديّ الله ورسوله ، بل لايخلوا صاحبه من إخلاص في أول أمره ولكن الإخلاص وحده لايكفي بل لابد من العلم ومن التجرد من الهوى والرأي المسبق .

يقول الدكتور جبسون في كتابه (كيف تفكر) :

(وعندما يكون المرء متغرّضاً فنادراً مايدرك هو أنه كذلك) [1] .

فغالبا مايكون الهوى ـــ في هذا النوع ـــ خافياً على صاحبه في أول الأمر ، إذ الغالب فيه التكبر عن الاهتداء بآراء الاعلام أو الإقتداء بمن سبقه في العلم والعمل معاً .

وإنما هو يقدم لنفسه مقدمات يجعلها لازمة لايصح للمسلم دين إلا بالسير عليها مثال :

ـــ وجوب اتباع الدليل .

ـــ عدم جواز التقليد .

ـــ ضرورة الإستنباط من الكتاب والسنة فقط ونبذ الآراء .

---

١ ـــ (كيف تفكر) سلسلة الشريط الحريري د . جبسون / ص ٢٩ .

وكلها حق ولكن أحياناً تؤدي إلى باطل ، فعند التطبيق يظهر الاخلال بمعانيها وخروجها عن المراد منها .

ــ فاتباع الدليل ينقلب إلى إهدار العلوم الشرعية الخادمة للدخول كالأصول والعربية .

ــ وعدم جواز التقليد يصبح تسفيهاً لآراء العلماء والاعراض عن فتاوي الأئمة ومناهج نظرهم في الإستدلال والفتوى .

ــ والأخذ من الكتاب والسنة يصير إلى الظاهرية في تناول النصوص ومنهج البحث وكثيراً مايظهر لصاحب الهوى ــ شيئاً فشيئاً ــ فساد مايذهب إليه ، ويرى نقاط الضعف في بناه وتتضح له الأدلة المعارضة لقوله .

ولكن ــ واأسفاه ــ غالباً مايكون قد اشتهر في الناس بقوله الذي ينصره ، والتف حوله الكثير من الأتباع يتخذونه معلماً وقائداً ، فيكون ذلك مانعاً له من التراجع ، فيزين له الشيطان البقاء على قوله ،وتصرفه كبرياؤه عن الإعتراف بالخطأ ، فتراه يغض النظر عن الأدلة المضادة لقوله ويرمقها من طرف العين ولاتدفعه نفسه إلى دراستها وتفحصها ومعرفة مدلولاتها ، فيتبع هواه وهو عالم بما هو واقع فيه بعد أن كان هواه خافياً عليه وعلى الناس أجمعين .

وهذا هو الداء العضال الذي تعاني منه البنية الإسلامية المعاصرة أيما عناء كما عانى منه المسلمون طوال تاريخهم الطويل .

ولابد لنا من أمثلة نتتبع فيها مسارب الهوى من لحظات ميلاده الأولى داخل النفس حتى نصل إلى نهاية المطاف وقد أصبح رأياً يتقلده صاحبه ويدافع عنه بالحق والباطل .

نأخذ مثالاً في مجال الدعوة : تلك النفس القوية العنيفة التي لاترضى إلا بشِرْعة التدافع والقهر . ثم إن هذه النفس قد صادفت واقعاً بعيداً عن الإسلام ، فهي ترغب في تغييره واستبداله بواقع إسلامي نقي تكون فيه صلتها بدينها موصولة العرى كما أراد لها ربها أن تكون ، فينشأ في هذه النفس ــ وفي غفلة من العقل الفاحص المدقق ــ اتجاه يدفعها إلى الحل العنيف دفعاً، ويجعلها تقدمه على غيره ابتداءاً . ذلك ولم يعرض على العقل دليل بعد ولم يسع في البحث عن الأمر .

وحين تعرض الأدلة ، ويلتزم العقل الفاحص المدقق بالنظر فيها والبحث عن أصحها ، وأولاها بالإتباع في هذا الواقع المضطرب المائج بشتى العوامل المتشابكة حين يطلب من العقل النظر في الأحكام الشرعية وفي مقتضيات الواقع معاً ليكون حكمه صحيحاً ــ والفتوى لاتكون حقاً إلا أن يعتبر فيها الحكم الشرعي الأصلي ومطابقته للواقع المراد تطبيق الحكم عليه كما نص على ذلك ابن تيمية في الفتاوي ــ حين يطلب من العقل ذلك نجده وقد غشيت عليه تلك الفطرة الأصيلة في النفس لشدة ميلها إليه وسيطرته عليها ، فتوجهه إلى تقديم مايناسبه من أدلة شرعية تدل على طلب الجهاد وقتال العدو ومواجهة المشركين ، ويزين ذلك للعقل أن القتال أمر مطلوب شرعاً لايشك في ذلك مسلم فهو إذن متبع لأمر شرعي فأين هو من الهوى ؟ بل سواه ممن يعارضه في ذلك هو صاحب الهوى وهو الذي يتعدى نص كتاب الله وسنة رسوله ﷺ !

ولايخفى وجه الحق في هذه المسألة ؛ إذ أن الفتوى الشرعية الصحيحة يجب أن تدخل في الإعتبار كل العوامل الواقعية السائدة فقد يكون الحكم الشرعي الأصلي هو الجهاد والقتال والمواجهة

ولكن ذلك حكم مجرد عن واقعه ، بينما الفتوى المبنية على ذلك الواقع تكون ممارسة طرق أخرى للدعوة تسبق الجهاد وتهيئه للمواجهة .

وما قصدناه من اتباع الهوى واضح في المثال المتقدم بما لايزيد عليه .

● ومثال آخر في مجال العقيدة وكيف تدخلها البدعة من قبل الهوى .

من الناس من يتعرض في مجال الدعوة للابتلاءات والمحن أو من تجري أمامه على مسرح الأحداث الإسلامية مالايوافق مزاجه ، كما حدث في موضوع التحكيم زمن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه .

فنجد أن ذلك إن صادف نفساً هادئة تؤثر الدعة والإطمئنان ، دفعتها دفعاً إلى محاولة المصالحة مع الواقع ، والإبتعاد عن مخاطر الدعوة المرتقبة ، والتقليل من حجم الخسارة قدر الإمكان ، فنجد أن العقل ـــ لسيطرة النفس عليه وشدة ميلها لهواها ـــ يقبل من الأدلة مايؤيد أن ذلك الواقع إنما هو مجرد واقع إسلامي يحتاج إلى بعض الإصلاح والتقويم ، وإنه لابأس بما عليه الناس في جملتهم ، وإنما هو بعض الإلتزام في هذا الجانب وبعض التقويم في ذلك الجانب فإذا نحن في عصر الخلافة الراشدة مرة أخرى ! وذلك هو منهج التفريط ومدخل (الارجاء) في كل آن .

وإن صادف نفساً جمعت بين القوة والعنف وبين البساطة والسطحية ، دفعتها دفعاًإلى رفض هذا المجتمع جملة برمته ، واستقرت في الوجدان دعوى لادليل عليها بأن ذلك المجتمع خارج

عن دين الله ـــ بأفراده وهيئاته ـــ فإنه لايمكن أن تكون مثل تلك الأحداث في وسط ينتسب فيه أي فرد للإسلام . هكذا دون تفصيل بين الأفراد والهيئات ثم حين يبدأ البحث عن حقيقة الإسلام والإيمان ، وتعرض عليه الأدلة على اختلافها نجده وقد تخير منها مايؤكد المعني المستقر في نفسه من أن ذنب المسلم كفر ومعصية الله كفر ... وهكذا يمضي في تكفير المجتمع والأفراد على حد سواء ! وذلك هو منهج الإفراط ومدخل (الخروج) في كل عصر .

وممن أشار إلى تلك المسالك الخفية للهوى في النفس العلامة الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني في كتابه (القائد إلى تصحيح العقائد) قال :

(افرض أنك وقفت على حديثين لاتعرف صحتهما ولاضعفهما أحدهما يوافق قولاً لأمامك ، والآخر يخالفه ، أيكون نظرك فيهما سواء ، لاتبالي أن يصح سند كل منهما أو يضعف ؟

افرض أن رجلاً تحبه وآخر تبغضه تنازعا في قضية فاستُفتيت فيها ولاتستحضر حكمها وتريد أن تنظر ألا يكون هواك في موافقة الذي تحبه ؟

افرض انك وعالماً تحبه وآخر تكرهه افتى كل منكم في قضية واطلعت على فتوى صاحبيك فرأيتهما صواباً ، ثم بلغك أن عالماً آخر اعترض على واحدة من تلك الفتاوي وشدد النكير عليها أتكون حالك واحدة سواء كانت هي فتواك أم فتوى صاحبيك أم فتوى مكروهك ؟

فتش نفسك تجدك مبتلى بمعصية أو نقص في الدين ، وتجد من تبغضه مبتلى بمعصية أو نقص آخر ليس في الشرع بأشد مما

أنت مبتلى به ؟ فهل تجد استشناعك ما هو عليه مساوياً لاستشناعك ماأنت عليه ، وتجد مقتك نفسك مساوياً لمقتك إياه ؟

وبالجملة فمسالك الهوى أكثر من أن تحصى ، وقد جربت نفسي أنني ربما أنظر في القضية زاعماً أنه لاهوى لي ، فتلوح لي فيها معنى ، فأقرره تقريراً يعجبني ، ثم يلوح لي مايخدش في ذلك المعنى ، فأجدني أتبرم بذلك الخادش وتنازعني نفسي إلى تكلف الجواب عنه وغض النظر عن مناقشة ذاك الجواب ، وإنما هذا لأني لما قررت ذاك المعنى أولاً تقريراً أعجبني صرت أهوى صحته ، هذا مع أنه لم يعلم بذلك أحد من الناس ، فكيف إذا كنت قد أذعته في الناس ثم لاح لي الخدش ؟ فكيف لو لم يلح لي الخدش ولكن رجلاً آخر اعترض علي به ؟ فكيف لو كان المعترض ممن أكرهه ؟) (١)

ويمكن لنا أن نتتبع مثل تلك المداخل النفسية في العديد من الفرق ، لندرك أن نشأتها إنما كانت هوى خفياً استقر في النفس ، ثم بحث عن دليل صدقه فقدم النتائج على المقدمات ، وقدم هواه على كتاب الله وسنة رسوله رغم دعواه العريضة بالإلتزام بهما ، والموفق من رأى من نفسه ذلك فعالجها قبل أن يستعصي الداء على الدواء . يقول الشاطبي في تقرير ماسبق :

(... وهي أن المبتدع لابد له من تعلق بشبهة دليل ينسبها إلى الشارع ، ويدعي أن ماذكره هو مقصود الشارع ، فصار هواه مقصوداً بدليل شرعي في زعمه ، فكيف يمكنه الخروج عن ذلك وداعي الهوى مستمسك بحسن مايتمسك به ؟ وهو الدليل الشرعي في الجملة .

١ ـــ القائد / ٢٦ .

ومن الدليل على ذلك ماروي عن الأوزاعي قال : بلغني أن من ابتدع بدعة ضلالة .. ألقي عليه الخشوع والبكاء كي يصطاد به وقال بعض الصحابة : أشد الناس عبادة مفتون ... إلى قوله :

(وماذاك إلا لخفة يجدونها في ذلك الإلتزام ونشاط يداخلهم يستسهلون به الصعب بسبب ماداخل النفس من الهوى ، فإذا بدا للمبتدع ما هو عليه رآه محبوباً عنده لاستبعاده للشهوات ـــ وعمله من جملتها ـــ ورآه موافقاً للدليل عنده ، فما الذي يصره عن الإستمساك به والإزدياد منه ، وهو يرى أن أعماله أفضل من أعمال غيره ، واعتقاداته أوفق وأعلى ؟ أفيفيد البرهان مطلباً ؟ ﴿ وكذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ (١) .

بين الهوى والخطأ والمعصية :

يختلط الأمر على كثير من الإسلاميين في التفرقة بين أمرين لدقة الفرق بين ظاهريهما وهما ـــ اتباع الهوى ـــ والخطأ في الاجتهاد .

والفارق بينهما كبير سواء في المنشأ أو النتيجة أو العاقبة .

فمنشأ الهوى في النفس هو كما رأينا ـــ دافع خفي باطن يسبق الدليل ويتقدمه ويدفع العقل إلى اتخاذ خط معين في الإحتجاج بالأدلة موجهاً إياها لخدمة غرضه وهواه .

والخطأ في الإجتهاد ينشأ عن أسباب عديدة (٢) :

١ ـــ الاعتصام ج ١ / ص ١٢٤ وبعدها

٢ ـــ راجع رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية فهو غاية في الفائدة في هذا الباب .

منها عدم وصول الحديث الصحيح إلى المجتهد .

أو إخفاء جهة الدلالة في الآية أو الحديث .

أو الخطأ في استنباط العلة وتحديدها أو في تطبيق أحد الأدلة الشرعية كالقياس أو الإستصحاب أو غير ذلك من أوجه الخطأ المحتمل في الإجتهاد .

ومما يلاحظ أن ذلك معتبر عند من بلغ رتبة الإجتهاد ، وحصل العلم المطلوب للتصدي للإفتاء ، أما من لم يحصل العلم اللازم فأخطأ عن جهل فذلك أمر آخر إذ الأمر عندئذ دائر بين احتمالين . فإما أن يعلم الحق ويتبين له وجه الصواب فيعود عن رأيه الذي ذهب إليه حال جهله .

أو أن يصر على رأيه ويغض الطرف عن الأدلة التي تظهر له مما كان غائباً عنه أو ان جهله ، وهي حالة تدل على صدوره عن الهدى في رأيه السابق وأنه اجتمع عليه الجهل والهوى .

فالهوى أمر باطن ولايُستدل عليه إلا بدليل خارجي كأن يعرض على من يظن به الهوى الأدلة الدالة على فساد مذهبه ، فإن أصر على ماهو عليه وأخذ في المراوغة والتأويل فهو صاحب هوى ولاشك .

يقول الشاطبي : (إلا أن هذه الخاصية راجعة في المعرفة بها إلى كل أحد في خاصة نفسه ، لأن اتباع الهوى أمر باطن فلا يعرفه غير صاحبه ، إذا لم يغالط نفسه إلا أن يكون عليها دليل خارجي) [1] .

---

١ ـــ الإعتصام ج ٢ / ص ٢٣٥ والخاصية المقصودة هي اتباع الهوى .

ففي ظاهر الأمر يستوي صاحب الهوى والمخطيء حتى يستدل على الهوى بدليل خارجي كأن تُعرض عليه الأدلة الصحيحة ، أو تشيع تلك الأدلة بما لايدع مجالاً للشك في اطلاعه عليها فحينئذ يُعرف أنه صاحب هوى .

فالمجتهد ـــ إذن ـــ لايُقدّم بين يدي الله ورسوله ، ولايسبق إلى فكره ونفسه هوى معين قبل الدليل الشرعي ، وإنما هو راغب في الوصول إلى الحق ، وساع في سبيل ذلك بالطريق الصحيح وإن أخطأ في النظر .

وعن نتيجة كل منهما :

فالهوى لاينتج إلا البدعة والتفرق ، والبدعة لايرجع عنها صاحبها ، بل تتمكن من نفسه فلايكاد يكون أمل في العدول عنها حتى وإن ظهر الدليل خلافها ، فإن الكبر واعتياد الرئاسة والتقدم تمنعه من اتباع الحق وترك ماهو فيه من صدارة .

عن يحيى ابن أبي عمرو الشيباني قال : (كان يقال : يأبى الله لصاحب بدعة توبة ، وماانتقل صاحب بدعة إلا إلى أشر منها) .

ونحوه عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال : (ماكان رجل على رأي من البدعة فتركه إلا إلى ماهو شر منه) .

وخرج ابن وهب عن عمر ابن عبد العزيز أنه كان يقول : (اثنان لانعاتبهما صاحب طمع ، وصاحب هوى فإنهما لاينزعان) .

وعن ابن شوذب قال سمعت عبد الله ابن القاسم يقول :

ما كان عبد على هوى تركه إلا إلى ماهو شر منه ... [1]

وأما المخطىء في اجتهاده فالظن به أنه يرجع إلى الحق عند ظهور الدليل ووضوحه لأنه لم يصدر عن رأي ناسخ في نفسه وعقله ، بل صدر عن اجتهاد في الأدلة التي لديه وكان خطؤه فيها من قِبل نظره لامن قِبل هواه .

قال الشافعي : (الحديث مذهبي فإذا صح الحديث فاضربوا بمذهبي عرض الحائط) وصح مثل ذلك عن بقية الأئمة الأعلام .

وأما عن عاقبة كل منهما :

ــ فإن صاحب الهوى لايقبل منه عمل لقوله ﷺ : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ) [1] .

ــ كذلك فإنه يزداد من الله بعداً .

روي عن الحسن أنه قال : صاحب البدعة مايزداد من الله اجتهاداً صياماً وصلاة إلا ازداد من الله بعداً .

ــ كذلك فإن الهوى المؤدي للبدعة مانع من شفاعة الرسول ﷺ والبعد عن حوضه .

ــ كذلك فإنه يخشى على صاحبه سوء العاقبة ، ويكون ممن يسوّد وجوههم يوم القيامة . حكى عياض عن مالك من رواية ابن نافع عنه قال :

لو أن العبد ارتكب الكبائر كلها دون الإشراك بالله شيئاً ثم نجا

---

١ ــ راجع الإعتصام ج ١ / ص ١٢٣ .

١ ــ متفق عليه .

من هذه الأهواء لرجوت أن يكون في أعلى جنات الفردوس ، لأن كل كبيرة بين العبد وربه هو منها على رجاء ، وكل هوى ليس منه على رجاء إنما يهوى بصاحبه في نار جهنم .

ــ كذلك فإنه يتبرأ منه الله ورسوله والمؤمنون .

قال تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ﴾ [1] .

وعن ابن عمر : إذا لقيت اولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم براء مني .

وجاء عن الحسن : لاتجالس صاحب بدعة فإنه يمرض قلبك .

ــ كذلك فإن على متبع الهوى المؤدي للبدعة إثم من عمل بقوله واتبعه عليه إلى يوم القيامة لقوله تعالى : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ [2] .

إلى غير ذلك من الآثار السيئة التي تعود على صاحب الهوى في الدنيا والآخرة .

وأما المجتهد المخطىء فإنه مأجور مثاب على اجتهاده كما في الحديث :(إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر) [3] .

---

١ ــ الأنعام / ١٥٩ .

٢ ــ النحل / ٢٥ .

٣ ــ جامع الأصول ١٠ / ١٧١ وأخرجه البخاري ومسلم وزاد في روايته الترمذي (فله أجر واحد) .

فالبون بينهما شاسع وليرجع كل إلى نفسه حذر العاقبة .

كذلك فإن صاحب المعصية خلاف القسمين : صاحب الهوى والمخطىء في اجتهاده .

فصاحب المعصية وإن صدر عن هوى، في نفسه لتحقيق شهوة ، إلا أنه لم يفتعل دليلاً يقيم به الحجة على صحة فعله خلاف صاحب الهوى .

وكذلك هو وإن لم يطلب دليلاً على صحة فعله ، فإنه عارف بموطن الحق والصواب خلاف المخطىء في اجتهاده .

ومن الأهمية بمكان التمييز بين كل من الأنواع الثلاثة السابقة الذكر لمن يتصدى للدعوة بوجه خاص ليكون على بينة من أمره فيعامل كلاً بما يستحقه ، ويعالج كلاً بما يليق له من دواء .

ونصل إلى الضوابط التي يستطيع المسلم من خلالها أن يتحقق من بعده عن الهوى أو يتّقى الوقوع في مهاويه ، أو يستنقذ نفسه منه إن كان قد ابتلي منه بشيء من التفصيل لكل منها على حدة حسب مايقتضيه الموضع وهي :

١ ـــ اتباع الكتاب والسنة .

٢ ـــ اتباع منهج السلف الصالح في النظر والإستدلال .

٣ ـــ اعتبار المتغيرات الواقعية .

٤ ـــ التقوى والإخلاص .

أولاً : اتباع الكتاب والسنة :

كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هما مصدرا التلقي للمسلم في حياته كلها . وهما يشكلان القاعدة الرئيسية التي يقوم عليها التشريع الإسلامي في كل جوانبه ونواحيه .

ويقصد بدليل الكتاب الآية القرآنية .

ودليل السنة الحديث الشريف بمختلف درجاته المتفق على العمل بها .

والناس في الإتباع قسمان (١) لاثالث لهما :

أولهما من اتبع الشرع ـــ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ـــ وفيه الهدى كله والخير كله .

قال ﷺ :(تركت فيكم ماان تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنة رسوله) (٢) .

ثانيهما : من اتبع العقل والتزم بما يؤديه إليه .

والعقل إما أن يكون مدفوعاً بالهوى ، وهو ماتكلمنا عن أصله فيما سبق وبيّن لنا مافيه من مجانبة للحق واضلال للخلق .

وإما أن يكون مرتكناً على وضع مقدمات لازمة والبناء عليها حسب الترتيب الذي يؤديه المنطق العقلي ـــ ثم التزام ماينتج عن ذلك من نتائج دون اهتداء بوحي أو رجوع لشرع .

---

١ ـــ واتباع الحس والتجربة لم يذكره قسماً منفصلاً لأن مايؤديه الحس والتجربة يعرض على العقل ليستنبط منه القواعد العامة ، كما أن معطيات الحس والتجربة مختصة في أغلبها ←

ومن هنا ضل من ضل من أصحاب الفرق التي اتخذت العقل شعاراً وجعلته إزاراً ـــ كالمعتزلة قديماً وبعض من أطلق عليهم (المفكرون) حديثاً ـــ وهو شعار خداع وإزار خلق بال ، إن رفعه من لايفقه أو ارتاده من ليس له بأهل .

ونحن لاننكر أن الله تعالي قد شرف الإنسان بالعقل ، وميزه على سائر الكائنات به ولذلك حمله الأمانة بعد أن عرضها على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان .

ولاننكر أن للعقل دوراً أساسياً في الإستدلال بآيات الله تعالى في الكون والإنسان وإليه نبّه القرآن الكريم في مثل قوله تعالى :

﴿ إن في ذلك لآيات لأولي الألباب ﴾ (١) .

﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٢) .

كما أنه بالعقل يُستدل على صحة النبوة وصدق الوحي وضرورتهما للخلق ـــ كما عليه محققوا أهل السنة والجماعة (٣) ـــ .

ولاننكر أنه بالعقل يدرك الإنسان حِكَم التشريع وأسرار التكليف وعلل ومصالح الأحكام ، فيعترف بقدر الوحي وعلوّ الشريعة ويبني بعد ذلك مايمكن من الأحكام بالإجتهاد معتمداً على ماقرره الوحي من قواعد وطرق للإستدلال وعلل ومصالح للأحكام وتعرف عليها الإنسان بعقله ونظره .

بالأمور الطبيعية فلا مدخل لها هنا .

٢ ـــ جامع الأصول ١ / ٢٧٧ وقال المحقق في الهامش أخرجه مالك في الموطأ بلاغا ويشهد له حديث ابن عباس عن الحاكم بسند حسن .

١ ـــ آل عمران / ١٩٠ . ٢ ـــ الرعد / ٤ ، النحل / ١٢ ، الروم / ٢٤ .

٣ ←

ولاننكر أن العقل هو مناط التكاليف الذي بغيابه يرتفع التكليف عن الإنسان فلا يتعرض لحساب ـــ ثواب أو عقاب ـــ حتى يعود إليه العقل ، سواء كان غيابه جزئياً بالنوم أوالإغماء أو كلياً بالجنون مثلاً ، فيفتح الملكان السجل ويأخذان في التسجيل وهو مدلول حديث رسول الله ﷺ :

(رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يشب ، وعن المعتوه حتى يعقل) (١) .

بل إن هدم الأدلة العقلية مطلقاً هو هدم للشريعة وإهدار للدين من أساسه ، بسبب ماتقدم ذكره مما بناه الله تعالى من استدلالات في القرآن على صدق الوحي والنبوة والآيات المبثوثة . يقول ابن تيمية في الفتاوي :

(العلوم ثلاثة أقسام : منها مالايعلم إلا بالأدلة العقلية ، وأحسن الأدلة العقلية التي بينها القرآن وأرشد إليه الرسول ﷺ ؛ فينبغي أن يعرف أن أجل الأدلة العقلية وأكملها وأفضلها مأخوذ عن الرسول ، فإن من الناس من يذهل عن هذا ؛ فمنهم من يقدح في الدلائل العقلية مطلقاً لأنه قد صار في ذهنه أنها هي الكلام المبتدع الذي أحدثه من أحدثه من المتكلمين) (٢) .

٣ ـــ راجع ابن تيمية مجموعة الفتاوي ج ١٣ / ص ١٣٧ كمثال .

١ ـــ رواه أبو داود ٤ / ٥٦٠ .

٢ ـــ مجموع الفتاوي ج ١٣ / ص ١٣٧ ، ويراجع كذلك حجة الله البالغة للدهلوي ص ٩ .

لاننكر أن للعقل كل هذه المكانة الرفيعة ، ولكن قوماً تجاوزوا تلك الحدود كلها فحكموه فيما لايقدر عليه [1] ، إذ جعلوه ينظر نظرة مستقلة في قواعد الدين ومصالح الدنيا ، فما وصل إليه عرضوه على الشرع .

فإن وافق الشرع فبها ونعمت وكان العقل مثبتاً لما جاء به التنزيل وإن خالف الشرع قدم العقل وأطرح الشرع إما بالتأويل أو التوقف أو الإنكار ، ولاندري ماهي قيمة الشرع عند هؤلاء إن كان في حالة الموافقة والمخالفة للشرع فالعقل مقدم عليه !

تلك هي المجاوزة ، وهذا هو الإفراط والطغيان ، فقد اتخذ العقل ميزاناً لأمور هو أعجز مايكون عن إدراك تفصيلاتها ، وتحديد صفة حقائقها مستقلاً عن وحي السماء .

وكيف للعقل أن يدرك ـــ وحده ـــ مااتصف الله سبحانه به من صفات الكمال ونعوت الجلال وكيف للعقل أن يدرك ـــ وحده ـــ حقائق مايلقاه الإنسان في قبره أو في يوم بعثه وعرضه بل كيف للعقل أن يدرك ـــ وحده ـــ وجوه المصالح والمفاسد فيما يعرض عليه من أمور الدنيا ومصالح الناس على شدة التشابك والإختلاف بين تلك المصالح فيما هو عام منها أو خاص ، وفيما هو موقوف بزمان أو مطلق عن قيود الزمان ، وفيما يخص نوعي البشرية رجالاً وإناثاً !؟

---

١ ـــ فمنهج السلف كما قرره ابن تيمية ـــ فيما يقوله أبو زهرة : (هذا هو منهاجهم ، وهو يجعل العقل سائراً وراء النقل يفرزه ويقويه بالإستدلال ، بل يقرب معاني النصوص) تاريخ المذاهب الإسلامية ـــ أبو زهرة / ص ١٨٩ ـــ دار الفكر .

ثم كيف لنا أن ندرك ـــ بوجه قاطع ـــ تخلص العقل من جرثومة الهوى التي تحدثنا عنها مع خفائها ودقتها ، وهو الضعيف ـــ وحده ـــ أمام الشهوة والغريزة إن لم يستند إلى توفيق الله وهدايته ؟

ثانيا : اتباع منهج السلف في النظر والإستدلال :

عرفنا فيما تقدم أن دليل المسلم إلى الأحكام الشرعية كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ . وقد اختط لنا صحابة رسول الله ﷺ وسلف أمتنا الصالح منهجاً مضبوطاً محدداً في كيفية الإستدلال والإستنباط من دليلي الكتاب والسنة ، وطريقاً للنظر فيما ورد لنا من (نصوص) قرآنية أو حديثية .

وقد خالف أهل الأهواء ذلك المنهج في النظر والإستدلال . وسنذكر ـــ بإيجاز شديد ـــ طرق الزائغين في النظر للأدلة لنتعرف من خلالها على طرق أهل الحق في النظر والإستدلال ـــ مستنين في ذلك بما اتبعه الشاطبي في الإعتصام فنقول من طرق الزائغين في النظر للنصوص .

١ ـــ اتباع المتشابه وعدم رده إلى المحكم . والمحكم [1] هو الواضح البين الذي لايحتاج في فهمه إلى ماسواه ، والمتشابه هو مااشتبه على العقل فهمه واحتاج إلى غيره من الأدلة لشرحه فمن المتشابه مالاسبيل إلى فهمه بالعقل كأوائل السور : فهذا يوكل علمه إلى الله تعالى ومن المتشابه ـــ حسب اصطلاح السلف فيه ـــ العام والمطلق والمجمل والمنسوخ [1] .

---

١ ـــ المصدر السابق / ص ١٥٦ وص ١٧٠ وص ١٣١ وص ١٨٤ حسب الترتيب .
١ ـــ راجع أصول الفقه لأبي زهرة / ص ١٢٣ .

فالعام يُردّ إلى الأحكام باعتبار المخصص له .

والمطلق يرد إلى الأحكام باعتبار المقيد له .

والمجمل يرد إلى الأحكام باعتبار المبيّن له .

والمنسوخ يرد إلى الأحكام باعتبار الناسخ له [٢] .

فشيمة أهل الأهواء اتباع المتشابه ـــ في أي من صوره ـــ دون ردّه إلى المحكم كما قال تعالى : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ [٣] .

٢ ـــ عدم الجمع بين أطراف الأدلة :

وذلك يعني النظر إلى مجموعة من الأدلة لتؤدي إلى طرف ما ، مع غض النظر عن أدلة أخرى يمكن بالجمع بينهما أن يظهر الحكم العدل في الأمر .

فالشريعة ـــ كما يقول الشاطبي ـــ (مامثلها إلا مثل الإنسان الصحيح السوي ، فكما أن الإنسان لايكون إنساناً حتى يستنطق فلا ينطق باليد وحدها ولا بالرجل وحدها ولا بالرأس وحده ولا باللسان وحده ، بل بجملته التي سمي بها إنساناً . كذلك الشريعة لايطلب منها الحكم على حقيقة الإستنباط إلا بجملتها ، لامن دليل منها أيّ دليل كان ، وإن ظهر لبادي الرأي نطق ذلك الدليل ...

فشأن الراسخين تصور الشريعة صورة واحدة يخدم بعضها بعضاً كأعضاء الإنسان إذا صورت صورة مثمرة .

٢ ـــ راجع رسالة الأكليل في المتشابه والتأويل لابن تيمية في مجموعة الفتاوي ج ١٣ / ص ٢٧٠ وبعدها ففيها فائدة جمة وكذلك الاعتصام ج ١ / ص ٢٣٩ .

٣ ـــ آل عمران / ٧ .

وشأن متبعي المتشابهات أخذ دليل ما أي دليل كان عفواً وأخذاً أولياً وإن كان ثم مايعارضه من كلي أو جزئي . فكأن العضو الواحد لايعطي في مفهوم أحكام الشريعة حكماً حقيقياً . فمتبعه متبع متشابه ولايتبعه إلا من في قلبه زيغ كما شهد الله به ﴿ ومن أصدق من الله قيلاً ﴾) [١] .

ومثال ذلك مافعلته المرجئة ؛ فقد اعتمدوا على أحاديث الشفاعة وما ورد فيه (من قال لاإلاه إلا الله دخل الجنة) وغيرها من أحاديث الرجاء ، ولم يعتبروا من الأحاديث مادل على ضرورة العمل وترتب الثواب عليه .

يقول ابن تيمية : (وأكثر ما يكون ذلك لوقوع المنازعة في الشيء قبل إحكامه وجمع حواشيه وأطرافه) [٢] .

٣ ـــ الإحتجاج بالأحاديث الضعيفة أو الموضوعة :

وتلك هي طريقة المبتدعة وأهل الأهواء ، وهم في المقابل يردون الكثير مما صح من الأحاديث المنقولة بنقل العدول الثقات .

ومن أمثلة ذلك مافعلته الصوفية في حديث النصف من شعبان .

يقول رشيد رضا في تعليقه على ماذكره الشاطبي من أن صيام ليلة النصف من شعبان وقيامها من البدعة : (هذا هو الصواب ولايغترن أحد بترغيب الخطباء الجاهلين في ذلك ولا بالحديث الذي يذكرونه على منابرهم وهو (إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها ، فإن الله ينزل فيها لغروب الشمس إلى سماء الدنيا فيقول : ألا من مستغفر فأغفر له ألا من مسترزق فأرزقه ،

١ ـــ الاعتصام للشاطبي ج ١ / ص ٢٤٤ وبعدها .

٢ ـــ اقتضاء الصراط المستقيم / ٤٣ .

ألا مبتلي فأعافيه ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر) فإن هذا حديث واه أو موضوع رواه ابن ماجه وعبد الرزاق عن أبي بكر ابن عبد الله ابن أبي سبرة ، وقد قال فيه ابن معين والإمام أحمد أنه يضع الحديث (١) .

ومثل حديث تواجد الرسول ﷺ عند السماع حتى سقط رداؤه وهذا حديث واه ولا أصل له .

وفي المقابل غلت المعتزلة في ردّ الأحاديث الصحيحة بحجة أنها لاتعقل مثل إثبات الصراط والميزان والحوض ورؤية الباري في الآخرة . وقد تتشبث بما روى من أحاديث عنه (العقل) وأنه هو الحكم الأول والأخير وكلها أحاديث غير صحيحة .

٤ــ عدم رد الفروع الجزئية إلى القواعد الكلية :

فمما لاشك فيه أن الشريعة تقوم على قواعد كلية عامة معتبرة في كل الفروع التي هي الأحكام التفصيلية للشريعة .

وقد بين الأئمة ــ من مختلف مذاهب الفقه ــ تلك القواعد العامة في بعض ماكتبوه ــ إذ أن ذلك لايختلف باختلاف المذاهب الفقهية ــ ومن أمثال ذلك الاشباه والنظائر للسيوطي ومثله لابن نجيم الحنفي ، وما تفرق منها في كتابات ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله .

وعدم النظر في القواعد الكلية عند اعتبار الحكم الجزئي يؤدي إلى خلل كبير في الفتوى . فالشريعة أشبه بالبستان المتعدد الشجر ، كل شجرة لها جذر ضارب في الأرض وفروع وثمار طارحة في

١ ــ هامش الإعتصام ١ / ٣٩ .

الهواء ، ومهما تعددت الفروع والثمار فإنها ترتد إلى جذر واحد تقوم عليه وتستمد منه . وتلك الجذور الضاربة في الأرض هي القواعد الكلية التي يقوم عليها بناء الشريعة .

مثال : إن اليقين لايرفع بالشك ، ولكن بيقين مثله .

ومن فروع هذه القاعدة : أن من يتيقن أنه قد توضأ للصلاة ثم شك بعدها لعله نقض هذا الوضوء أم لا فالأصل أن يبني الوضوء لأنه متيقن ونقضه مشكوك فيه إلا إن أراد الاحتياط فيعيد الوضوء ، ولكن لايلزمه ذلك وجوباً .

مثال آخر : إن الضرر يزال وهي قاعدة عامة مضطردة في الشرع ومن فروعها : الرد بالعيب ، والحجر بأنواعه وأحكام الشفعة وغيرها من أبواب الفقه .

وقد بني عليها قاعدة أخرى هامة وهي أن الضرورات تبيح المحظورات .

وغير ذلك من قواعد كلية عامة كقاعدة رفع الحرج ، وقاعدة أن الأصل في الأشياء الاباحة وأن الأصل في الابضاع التحريم ...(١)

١ ــ يراجع الأشباه والنظائر للسيوطي الشافعي وابن نجيم الحنفي المصري .
يقول ابن تيمية : (ونحن نذكر قاعدة جامعة في هذا الباب لهم ولسائر الأمة فنقول : لابد أن يكون مع الإنسان أصول كلية يرد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت ، وإلا فيبقى في كذب وجهل بالجزئيات ، وجهل وظلم في الكليات فيتولد فساد عظيم) المنتقى من منهاج الإعتدال / ص ٣٢٠ .
يرجع في ضبط هذا الأ مر (وهو الجزئي والكلي) إلى الموافقات ج ٣ / ص ٢٦٠ وبعدها كتاب الأدلة .

وطريق الزائغين هو النظر إلى كل فرع على حدة دون الرجوع إلى القاعدة التي بني عليها منع التقارب والخلاف المنزه عن الشريعة بنص كتاب الله في قوله تعالى : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (٢)

ومما لابد من الإشارة إليه هنا في قضية اتباع منهج السلف الصالح أن الأحاديث قد نصت على أفضلية القرون الثلاثة الأولى ومن ذلك ماوراه مسلم في صحيحه :

قال رسول الله ﷺ : (أفضل القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) .

ففضل الصحابة والتابعن وتابعي التابعين فضل منصوص عليه ، ولاحجة لمن يتنكب عن طريقهم السوي ، والاهتداء بأقوالهم وفتاواهم في مختلف مجالات الحياة ، والرجوع إلى تلك الأقوال والفتاوي ليس تقليداً كما يزعم فروخ الخوارج في هذا العصر ، بل هو محض اتباع السنة والعمل بالحديث ، ودليل صحة الفهم وضابط من ضوابط السلامة إذ هم الأقرب من عهد النبوة المشرق المفعم بالإيمان ، وهم أهل اللغة الذين استقامت ألسنتهم في عهد قوة اللغة والعناية بها وهم المجاهدون العاملون العالمون الذين تربوا على يد سيد المرسلين ﷺ إن كانوا من الصحابة أو على أيدي الصحابة إن كانوا من التابعين ، أو على أيدي التابعين إن كانوا من تابعيهم ، فهو فضلٌ من فضلٍ من فضلٍ ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ (١) .

---

٢ ــ النساء / ٨٢ .

١ ــ الجمعة / ٤ .

ثالثاً : اعتبار المتغيرات الواقعية :

الإسلام دين يقوم على الواقعية ، وهي خصيصة هامة من خصائصه .

والواقعية تعني أنه دين لايتعامل مع فروضٍ نظرية مجردة ، أو أمور خيالية بعيدة عن التطبيق في أرض الواقع . بل يتعامل ــ في جوانب الحياة التي يتناولها من عقيدة ومعاملات بشرية في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع ــ مع الانسان بكل مافيه من قوة وضعف ، معتبراً قدراته الإنسانية التي خلقها له الله سبحانه منزل الشرع .

وحقيقة أن الله سبحانه هو خالق الناس ، وهو كذلك منزل الشرع الذي ينظم حياة الناس ، تفرض أن تكون أحكام الشرع متسقة مع القدرات المخلوقة في الانسان فتعالج نواحي الضعف فيه ، وتلبي حاجات الغريزة المركوزة في فطرته ، وتسمو بنواحي الرقي والقوة التي يتمتع بها سواء في الروح أو البدن .

يقول الشهيد سيد قطب في (خصائص التصور الاسلامي) :

(والخاصية السادسة من خصائص التصور الاسلامي هي الواقعية ....

فهذا تصور يتعامل مع الحقائق الموضوعية ذات الوجود المستيقن والأثر الواقعي الإيجابي لامع تصورات عقلية مجردة ، ولامع مثاليات لامقابل لها في عالم الواقع أو لاوجود لها في عالم الواقع) (١) .

---

١ ــ خصائص التصور : سيد قطب / ص ١٩٢ .

ومن هذا المنطلق ذاته كانت الفتاوي الشرعية تبنى على أمرين معاً:

١ ـــ الحكم الشرعي الأصلي .

٢ ـــ الواقع المراد تطبيق الحكم الشرعي عليه وهو مايسميه علماء الأصول (تحقيق المناط) .

وكمثال فإن حكم الخمر التحريم وهذا حكم أصلي .

فإذا وجدنا مشروباً ما وسأل أحد المسلمين عن حكم تناوله وجب علي المفتي أن يتعرف على نوع المشروب في الكأس فإن كان خمراً أفتى بالتحريم .

وكذلك شرط الله سبحانه العدالة في الشهود ولكنه لم يعيّن فلاناً بعينه هل هو عدل أم لا . لذلك وجب على القاضي أن يتحقق من عدالة الشاهد بعينه حتى يمكن قبول شهادته (١) .

وهذا الأمر ـــ وهو تحديد الواقع تحديداً دقيقاً ـــ يتوجب على من تصدى للإفتاء في أي أمر من أمور المسلمين أن يفطن إليه ، وأن يراعيه مراعاة تامة .

فإن من أدرك حكم الله سبحانه ولم يدرك الواقع المراد التطبيق عليه فقد أخطأ الفتوى ومن أدرك حقائق الواقع المعروض عليه ولم يعرف حكم الله سبحانه في أمثالها فقد أخطأ الفتوى ولذلك قال العلماء بتغير الفتوى بتغير الزمان والمكان والحال (٢) .

---

١ ـــ راجع ابن تيمية : مجموعة الفتاوي ١٣ / ٢٥٤ .

٢ ـــ راجع ابن القيم في اعلام الموقعين / ج ٣ .

وعدم تطبيق الحكم على واقعه الصحيح هو من طرق أهل الأهواء ، بل من تحريف الكلم عن مواضعه . يقول الشاطبي

(تحريف الأدلة عن مواضعها . أن يرد الدليل على مناط فيصرف عن ذلك المناط إلى أمر آخر موهماً أن المناطين واحد ، وهو من خفيّات تحريف الكلم عن مواضعه والعياذ بالله) (٣) .

ويغلب علي الظن أن من أقر بالإسلام ويذم تحريف الكلم عن مواضعه ، لايلجأ إليه صراحاً إلا مع اشتباه يعرض له ، أو جهل يصده عن الحق ، مع هوى يحميه عن أخذ الدليل مأخذه فيكون بذلك السبب مبتدعاً) (٣) .

والظن بمن وقع في مثل هدا لاشتباه يعرض له ، أنه يرجع عنه عند بيان الدليل ، وأن المناطين مختلفين والواقعين متغايران فإن أبى فهو الجهل والهوى المؤدي للبدعة .

فالواجب الشرعي للمسلم القوي المتمكن إزاء قوى الشرك والطغيان ، خلاف واجبه الشرعي في حالة ضعفه وقلة أنصاره .

وواجب المسلم إزاء الطغيان في عصر من العصور أو بلد من البلدان خلاف واجبه في عصر آخر أو بلد آخر .

وحيثما يتغير واقع المسلم ـــ لأي سبب من الأسباب ـــ يكون واجبه مكافئاً لواقعه الجديد ومتطلباته . ومن هنا قال العلماء إن تحقيق المناط ـــ وهو تنزيل الحكم على الواقع واستنباط الفتوى ـــ هو صورة من الإجتهاد الشرعي لاتنقطع حتى نهاية الدنيا (١) .

---

٣ ـــ الاعتصام للشاطبي ١ / ٢٤٩ .

١ ـــ يراجع الموافقات ج ٣ / ص ٨٩ كتاب الاجتهاد المسألة الأولى .

ويبرز من خلال هذه النقطة الفائدة العظمى التي يجنيها المسلمون من دراسة الأمر الواقع ــ بكل ناحية من نواحيه ــ دراسة تامة واعية مبنية على أسس سليمة ، إن أرادوا أن يقيموا أمر الله بينهم في كل أمر من أمورهم ، وإلا فهو التخبط والضياع كذلك يبرز مدى الخطأ الذي يرتكبه من تصدر للإفتاء في شؤون المسلمين وشؤون الدعوة على حد سواء ، ولم يتأهل بمثل ذلك الأمر ، ولم يتحقق بكل ما ينبني عليه من نتائج بالنسبة للأفراد أو المجتمعات تحققاً تاماً .

بل إن تحديد حجم ذلك الواقع المعادي ــ أو الواقع المؤيد على السواء ــ من عوامل صحة الفتوى ودقة تحديث الطريق ، وسرعة الوصول للهدف ، تماماً كما فعل رسول الله ﷺ في غزوة الخندق حين اختار البقاء في المدينة وحفر الخندق حولها كأسلوب بديل للأسلوب المعتاد في المواجهة آنذاك ، لمّا عرف حجم العدو الزاحف إليه ، فكان أسلوبه مكافئاً للواقع الماثل أمامه دون تهويل أو تصغير .

رابعاً : التقوى والإخلاص .

ذلك أن من اتقى الله وأخلص النية له سبحانه ، هداه الله إلى الحق ، وأنار طريقه إليه وأرشده إلى الهدى والصواب بفضل منه ورحمة وليس فقه من اتقى وأصلح وأخلص كفقه من كان علمه عن جفاف قلب أو سوء طوية .

قال تعالى : ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ .

والتقوى والإخلاص ضد الهوى فلا يلتقيان في قلب عبد أبداً .

ولانعني بالتقوى والإخلاص كثرة العبادة ، فإن الخوارج كانوا أكثر الناس عبادة ولكنهم كلاب أهل النار وقد صح فيهم حديث رسول الله ﷺ :

(...تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم وصيامكم إلى صيامهم يقرؤون القرآن لايتجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية) .

بل المقصود هو ذلك النور الذي يقذفه الله في قلب العبد ، إذا علم فيه من معاني الخوف والتوكل والرجاء والمحبة لله سبحانه ، وبهذا النور ينكشف أمام العبد وجه الحق في المسألة بمجرد رؤية الدليل ، فيهتدي حيث يضطرب الناس ، ويعرف الدليل الصحيح حيث يشتبه الأمر على الناس ، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء .

يقول الشاطبي في شرح هذا المعنى : (... وهو في الحقيقة ناشيء عن نتيجة التقوى المذكورة في قوله تعالى : ﴿ إن تتقوا الله

---

١ ــ الحديد / ٥٧ .
٢ ــ الأنعام / ٦ .

لله تعالى وحده والعصمة لرسوله ﷺ ولذلك قيل : (لايزال المرء عالماً حتى إذا ظن أنه علم فقد جهل) .

والتعصب فرع ادعاء العصمة الذي لاينفك عنه ، وادعاء العصمة فيه مافيه من خطل في الرأي ومجانبة للحق ، وعنه نشأت فرق كالرافضة خرجت عن خط الإسلام السوي المستقيم الذي يضع الإنسان ــ كل انسان ــ في موضعه الصحيح من النقص والكمال ومن الخطأ والصواب .

فالضعف والجهل ــ إذن ــ هما جناحا التعصب : ضعف النفس وجهل العقل (١) .

والتعصب عند الإطلاق ظاهرة ذميمة لاتؤدي إلا إلى التفرق والتعادي (وهو من خصال أهل الكتاب التي تكون في هذه الأمة . قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم ﴾ (٢) فوصف اليهود بأنهم كانوا يعرفون الحق قبل ظهور النبي فلما جاءهم من غير طائفة يهوونها لم ينقادوا له ، وهذا يُبتلى به كثير من المنتسبين إلى طائفة في العلم أو الدين أو إلى رئيس معظم عندهم ، فإنهم لايقبلون من الدين ــ لافقهاً ولارواية ــ إلا ماجاءت به طائفتهم) (٣) .

ويقابل التعصب الثبات على الحق والتمسك به ، وقد يتقارب المعنيان فلا يتميزا إلا في نظر المدقق الفاحص ، وقد يخلط بينهما ،

١ ــ والجهل المقصود هنا ليس هو بمعنى قلة التحصيل فقط بل بمعنى قلة التحصيل عموماً أو التحصيل في اتجاه واحد أو ضيق الأفق وقصر النظر ... وكلها جهل .
٢ ــ البقرة / ٩١ .
٣ ــ ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم / ٨ .

فنرى البعض يمدحون التعصب على أنه دلالة قوة إيمان ورسوخ عقيدة ، بينما نرى البعض الآخر يذمون المتمسك بالحق الثابت عليه ويرمونه بالجمود والتعصب ، والحق أن البون شاسع بين المعنيين في المنشأ والطريق والثمرة .

فمنشأ التعصب ضعف في النفس وجهل في العقل ، بينما التمسك بالحق ينشأ من القناعة بالرأي ووضوح الدليل .

وطريق المتعصب هو الصد عن معرفة دليل المخالف أو الإستماع إليه أو اعتباره في النظر بأي وجه من الإعتبار .

بينما طريق المتمسك بالحق المناقشة الحرة والإستماع إلى دليل المخالف برحابة صدر واتساع أفق ، والرد المشفق الذي يرجو هدى المخالف ولاينتظر سقطته .

وثمرة التعصب الإختلاف والفرقة والتباغض ، وثمرة التمسك بالحق اجتماع المؤالفين عليه واتحادهم ومراجعة المخالفين لمناهجهم ، ثم نور في القلب يضيء لصاحبه الطريق ويهديه الصراط المستقيم .

كما أن لكل من التعصب والتمسك بالحق مجالاً وحدوداً .

ففي أصول الدين وقواعده الثابتة المتواترة وماصح عن رسول الله ﷺ لامجال لتهاون أو تسامح ، بل الإعتصام بالحق إلى أقصى حدوده هو المطلوب المحمود ــ أما فيما يسوغ فيه الخلاف من مسائل الفقه التي تحتمل تعدد أوجه النظر ــ فإن الثبات على الحق (١) لاينافي التسامح أو المؤالفة أو احترام اجتهاد الغير .

١ ــ قال الشوكاني : (فالحق الذي لاشبهة فيه ولاشك أن الحق واحد ومخالفه مخطيء ←

يعرف الشوكاني التعصب فيقول : (بأن تجعل مايصدر عنه (الإمام المتبع) من الرأي ويروى له من الإجتهاد حجة عليك وعلى سائر العباد ، فإنك إن فعلت ذلك كنت قد جعلته شارعاً لامتشرعاً ، ومكلِفاً لامكلَفاً) (٢) .

وماقصده الشوكاني هو المتعصب لرأي إمام مجتهد أو عالم من علماء الشريعة .

فالمتعصب إما أن يتعصب لرأي إمام مجتهد أو عالم فقيه .

أو أن يتعصب لرأي من يحسبه كذلك وهو ليس بذاك .

أو أن يتعصب لرأيه الشخصي ونظره الذاتي .

والثلاثة كلها سوء ولاتؤدي إلا إلى آفات التعصب البغيضة ، فالمسلم الذي ليس عنده قدرة على البحث والنظر في الأدلة الشرعية وليس مؤهلاً لذلك فهذا إن سأل عالماً تقياً وقلده أو اتبعه فيما أجاب به هذا العالم ، فلابأس عليه ، ولكن إن خرج به ذلك إلى التعصب وتسفيه آراء الآخرين المستندة إلى الكتاب والسنة أو إلى مذهب أحد الأئمة الأعلام ، فتلك هي الآفة التي يجب الحذر منها ، فالعالم

مأجور إذا كان قد وفى الإجتهاد حقه ولم يقصر في البحث) انظر : إرشاد الفحول / ٢٦٢ ، وقد استدل بما صح عن رسول الله ﷺ أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب له أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجر ، وقد نقل هذا القول عن مالك والشافعي وأبي حنيفة وأكثر الفقهاء . (المصدر السابق / ٢٦١) .
والمقصود بأن الحق واحد هو في المسائل الإجتهادية التي لانص فيها أما ماجاء من اختلاف التنوع مثل أنواع الإستفتاح أو التشهد أو غير ذلك في أحاديث صحيحة فالحق فيه هو كل هذه الوجوه .
٢ ـــ أدب الطلب للشوكاني .

المُقلّد ليس بمعصوم ، بل إن كبار الأئمة قد حذروا الناس من ذلك وحثوهم على ألا يتعصبوا لأقوالهم ، ولكن المُقلّد قد يحيك في نفس أحدهم أن كلام إمامه خطأ ولكنه يتوقف في رد ذلك لاعتقاده أن إمامه أكمل منه علماً وعقلاً وديناً، وهذا مع علمه أن إمامه ليس بمعصوم (١) .

أبان شيخ الإسلام عن أهم حجة يتمسك بها المتعصب في مواجهة الحق وهي اعتقاده بكمال إمامه فيتخذ خطأه صواباً ، وينحرف عن الطريق السوي دون أن يدري ، (فإن الحق يستحيل أن يكون وقفاً على فئة معينة دون غيرها والمنصف من دقق في المدارك غاية التدقيق) (٢) .

أما من تمسك برأيه الشخصي واجتهاده فهو بين أمرين :

ـــ إما أن يكون من أهل الإجتهاد والذين تحققت فيهم الشروط المعروفة عند العلماء (٣) ، فهذا غير ملوم ولامذموم بل الواجب عليه أن يتمسك برأيه وبما وصل إليه باجتهاده الذي هو الحق في ظنه .

١ ـــ ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل ١ / ١٥٥ .
٢ ـــ جمال الدين القاسمي : قاعدة في الجرح والتعديل / ٣٢ .
٣ ـــ ذكر العلماء الشروط الواجب توفرها في المجتهد المطلق ـــ وهذه الشروط تخفف عندما يكون الإجتهاد في دائرة محصورة ـــ وقد أجملها الشوكاني في (إرشاد الفحول) بما يلي :
الشرط الأول : (أن يكون عالماً بنصوص الكتاب والسنة فإن قصر في أحدهما لم يكن مجتهداً ولايجوز له الإجتهاد ولايشترط معرفته بجميع الكتاب والسنة بل بما يتعلق منهما بالأحكام) .
ولنا تعليق في هذا الصدد ، فقد نقل الفضلاء أنه يمكن لأي من الناس الإجتهاد والفتوى إن أحرز بعض مصنفاته الحديث وبعض كتب الجرح والتعديل وقد تناقل بعض من تتلمذ عليه ذلك وأشاعه مما أدى إلى عواقب وخيمة تعاني منها الدعوة الإسلامية أيما عناء ،

وهذا شريطة أن يسير على نهج المتمسك بالحق لا المتعصب كما أسلفنا ، وإما أن لايكون ممن أُهّل للإجتهاد ولم يرفع بالعلم رأساً بل غاية أمره أنه اطلع على ورقات أو كتيبات من هنا وهناك ، واستمع إلى بعض الآراء من هذا العالم أو ذاك ، وأدار بعض

وقد قابلت تلك الدعوة بعض النفوس التي هُيأت للتفلت واستمرأت التطاول فتناست قدر نفسها وغمطت حق غيرها . وقد أحسن الشوكاني في فصل هذه المسألة فقال : (والحق الذي لاشك فيه ولاشبهة أن المجتهد لابد أن يكون عالماً بما اشتملت عليه مجاميع السنة التي صنفها أهل الفن كالأمهات الست ومايلحق بها من المسانيد والمستخرجات ولايشترط في هذا أن تكون محفوظة له مستحضرة في ذهنه بل يكون ممن يتمكن من استخراجها من مواضعها بالبحث عنه وأن يكون له تمييز بين الصحيح منها والحسن والضعيف ويتمكن من معرفة حال الرجال وماهو مردود وماهو قادح في العلل وماهو غير قادح) إرشاد الفحول / ٢٥١ .

الشرط الثاني : أن يكون عارفاً بمسائل الإجماع حتى لايفتي بخلاف ما وقع الإجماع عليه .

الشرط الثالث : أن يكون عالماً بلسان العرب بحيث يمكنه تفسير ماورد في الكتاب والسنة من الغريب ، ولايشترط أن يكون حافظاً لها عن ظهر قلب بل متمكناً من استخراجها من مؤلفات الأئمة .

الشرط الرابع : أن يكون عالماً بعلم أصول الفقه ، وعليه أن يطول الباع فيه ويطلع على مختصراته ومطولاته فإن هذا العلم هو عماد فسطاط الاجتهاد وأساسه الذي تقوم عليه أركان بنائه وهو أهم آلة في يد المجتهد .

والشوكاني من كبار المحدثين وممن شدد النكير على التقليد وهاهو ذا يبين ضرورة علم الأصول لمن رام الإجتهاد .

الشرط الخامس : أن يكون عارفاً بالناسخ والمنسوخ بحيث لايخفي عليه شيء من ذلك مخافة أن يقع في الحكم بالمنسوخ ، انظر أيضاً : الموافقات للشاطبي وغيات الأمم للجويني / ٤٠٠ والمستصفر للغزالي ٢ / ٣٥٠ .

وماذكرناه آنفاً من الشروط هي مايجب توفره في المجتهد المطلق الذي يدلي في كل مسألة برأي ويُلجأ إليه في الحوادث المستمدة ويفتي فيها بما يوافق أصول الكتاب والسنة ومقاصدهما ، ولكن ذلك لايمنع من وجود مجتهد المسألة وهو من تمكن من دراسة مسألة معينة بذاتها دراسة وافية بكل أدلتها ومايدور حولها من مسائل خادمة لها في اللغة أو الأصول فيمكنه أن يفتي فيها بناء على علمه ذاك شريطة أن يكون قد استقصى الأمر من كل جوانبه . انظر إحكام الأحكام للآمدي ٤ / ٢٢١ .

المناقشات مع أترابه ونظرائه ممن فتنوا بالعلم فاعتقدوا أن تحصيله هين سهل لايحتاج إلا إلى القليل من الإطلاع والنظر في كتب الأقدمين ثم تكديس الكتب بالبيوت ، وأنه بذلك تكتمل لهم القدرة على الفتوى ، بل وعلى رد آراء الأئمة الأعلام ، بدعوى الفرار من التقليد ، فهؤلاء حالهم أسوأ ممن سبقهم من المقلدة ، وترى التعصب فاشياً بينهم إلى أقصى مداه ، فالمقلد المجتهد ــ وإن تعصب له ــ فالاحتمال قائم في أن يصيب قوله الحق فيكون ممدوحاً على إصابة الحق بفعله مذموماً لتعصبه .

أما من تعصب لقول نفسه دون أن يكون ممن تحلى بالعلم بالمطلوب فهو أولاً مذموم لتعصبه ، ثم مذموم لعدم اتباعه من أمر باتباعه من أهل الذكر العالمين كما هو مفروض عليه ، ثم إن إصابته للحق احتمالها قليل ، فهو مذموم كذلك لاتباعه مالم يغلب على الظن ، وماهو خطأ في غلبة الظن .

وأما من قلد من ليس بعالم أصلاً ، فهذا قد جمع الشرّين ، إذ هو مأمور أن لايتبع إلا من وثق بعلمه وشهد له بذلك ، فقد ذكر العلماء أن مجهول الحال الذي لايعرف عنه علم أو جهل ، لايصح تقليده ويحسن بنا أن لاننتقل من هذا المقام حتى نقول كلمة حق تختص بهذه المسألة ، وهي مسألة الاجتهاد والتقليد ، لأن هذه المسألة ودون ضبطها وتحريرها أدت إلى كثير من الخلط والإضطراب وإلى المزيد من التفرق والتشتت ، وهي مسألة ليست بعيدة عما نحن فيه من دراسة التعصب فإن التعصب فرع عن التقليد ، وكما أنه قد نشأ عن دعوى التفلت وإباحة الاجتهاد لمن شاء بحجة ذم التقليد أن تبعثرت الجهود وتفتتت الدعوة وادعى الأصاغر العلم ، كذلك فإنه قد نشأ عن الجمود والتمسك بقول

من يعتقد فيه العلم — دون دليل حقيقي — ان ظهرت طائفة ممن عموا وصمّوا عن الحق الواضح المستبين الذي لاتنكره إلا العين الكليلة بل العمياء .

وكلا الأمرين شر لابد من دفعه بكل وسيلة ، والمعايش للدعوة الاسلامية في حاضرها يرى كم جر كل من الاتجاهين إلى نكبات وويلات ، والغريب في الأمر أن سبيل دعاة التفلت هو سبيل دعاة الجمود سواء بسواء ، فإن داعي التفلت — بأي محنة كانت — إنما يبدأ بالانكار على من نصحه باتباع شرائط العلم الصحيحة والوقوف عند الحد الذي أوقفه الله عنده ، ثم ينتهي آخر أمره إلى الجمود إما على رأيه أو على رأي من هو على شاكلته ممن زيّن له هذا الطريق أو توسم فيه العلم دون حق !

فلابد إذن من محاولة البيان على قدر الجهد والطاقة .

فإن منهج أهل السنة والجماعة هو الاعتدال والوسطية ، بينما النظر إلى الأمور من زاوية واحدة أو التطرف في الآراء إلى حد أطرافها ليس بمنهج الاعتدال والوسطية :

أولاً : وقد وردت عن الأئمة الأعلام نقول كثيرة تفيد ذم التقليد والمقلدين نجتزىء منها ببعض ماذكره الامام ابن القيم في (اعلام الموقعين) قال :

(وقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم ، وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة فقال الشافعي : مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل ، يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لايدري ، ذكره البيهقي .

وقال أبو داود : قلت لأحمد : الأوزاعي هو أتبع من مالك ؟ قال : لاتقلد دينك أحداً من هؤلاء ، ماجاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ به ، ثم التابعي بعد الرجل فيه مخير .

وقال بشر بن الوليد : قال أبو يوسف : لايحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا .

وقال ابن مسعود : لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً إن آمن آمن وإن كفر كفر فإنه لأسوة في الشر) .

قال الشنقيطي : (ومعلوم أن المقلد الصرف لايجوز عده من العلماء ولامن ورثة الأنبياء) (١).

---

١ — أضواء البيان ٧ / ٤٣٢ وانظر أعلام الموقعين لابن القيم ٢ / ١٩٢ وبعدها . والحق أن الامام ابن القيم كان من أكثر المشددين على المقلدة وقد أفاد وأجاد فيما ذكر من أدلة على مراده ذاك في (أعلام الموقعين) إلا أن لنا تعليقاً على ماأورده الامام في ذلك الكتاب الجليل ؛ فنقول :

أولاً : عنون الامام في ٢ / ١٨٧ حين تكلم عن التقليد بقوله : ذكر تفصيل القول في التقليد وانقسامه إلى مايحرم القول فيه والافتاء به ، وإلى مايجب المصير إليه ، وإلى مايسوغ من غير إيجاب . والعنوان ذاته يحمل معنى أن التقليد ليس كله مذموماً ممنوعاً بل أن منه مايجب المصير إليه كذلك فإنه شرع بعدها في الحديث عن النوع الأول وهو التقليد المحرم وقسمه إلى ثلاثة أقسام : هي الاعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء الثاني : تقليد من لايعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله ، الثالث : التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد . واستطرد الامام بعدها في الحديث عن النوع الأول وهو المحرم وردّ على من أجاز التقليد بحجج عقلية ثم ذكر نهي الأئمة عن تقليدهم ثم عقد مجلس مناظرة بين صاحب حجة ومقلد استغرقت مايوازي ثمانين صفحة (من ٢٠١ إلى ٢٧٨) فذكر فيها إحدى وثمانين وجهاً ينصر فيها صاحب الحجة على المقلد — وهو فيها على حق — إلا أنه قال في النهاية : وقد أطلنا الكلام في القياس والتقليد ، وذكرنا من مآخذهما وحجج أصحابهما ومالهم وماعليهم ... ثم انهى حديثه عن التقليد ونسي — رحمه الله تعالى — أن يتحدث عن بقية الأنواع الثلاثة التي قسم إليها

التقليد في عنوان الباب وهما التقليد الذي يجب المصير إليه والتقليد الذي يسوغ ، وقد سبب رحمه الله بهذا النسيان بلبلة وخلطاً كبيرين عند من أشرنا إليهم من قبل من الاسلاميين خاصة وليس بأحدهم طاقة إلى التحقق مما هو مسطور والتفكر فيما وراءه والنظر إليه بعين فاحصة وعقل مفتوح على الرغم من أن هؤلاء بالذات هم دعاة عدم التقليد والتعصب ودعاة التفلت والتطاول وكان أولى بهم أن يكونوا أول من يدقق ويحقق فيما قرأوه لابن القيم أو لغيره ولكن كما ذكرنا في حديثنا من قبل إن دعاة التفلت ودعاة الجمود يلتقيان في نهاية المطاف !

وقد أشار الامام إلى النوعين الآخرين من التقليد إشارة عابرة في ثنايا حديثه المطول عن التقليد المحرم ، قال : وأما تقليد من بذل جهده في اتباع ماأنزل الله وخفي عليه بعضه فقلد فيه من هو أعلم منه فهذا محمود غير مذموم ومأجور غير مأزور ، كما سيأتي بيانه عند ذكر التقليد الواجب والسائغ إن شاء الله ٢ / ١٨٨ وهذا يؤكد ماذكرناه من نسيانه رحمه الله لتفصيل القول في النوعين المذكورين الذي أشار إلى أحد أشكال نوع منهما دون تفصيل .

وقال : فإن قال : قصري وقلة علمي يحملني على التقليد ، قيل له : أما من قلد فيما ينزل به أحكام شريعته عالماً يتفق له على علمه فيصدر له في ذلك عما يخبره فمعذور ؛ لأنه قد أدى ماعليه ، وأدى مالزمه فيما نزل به لجهله ، ولابد له من تقليد عالم فيما جهله وهو شكل آخر ينتمي لأحد النوعين المذكورين دون تفصيل ٢ / ١٩٩ .

لذلك فإن الواجب هو أن ندرك أن الآثار التي أوردها ابن القيم وغيره من العلماء تفيد ذم التقليد ليست مطلقة بل هي مقيدة بالتقليد المحرم وإلا فكيف يُذم من قلد فيما يجب أو يسوغ له التقليد فيه ؟

ثانياً : فرق ابن القيم بين التقليد والاتباع قال : فإن طريقتهم ـــ أي الأئمة ـــ كانت اتباع الحجة والنهي عن تقليدهم كما سنذكره عنهم إن شاء الله ، فمن ترك الحجة وارتكب مانهوا عنه ونهى الله ورسوله عنه قبلهم فليس على طريقتهم وهو من المخالفين لهم ، وإنما يكون على طريقتهم من اتبع الحجة ، وانقاد للدليل ... وبهذا يظهر بطلان فهم من جعل التقليد اتباعاً ... ٢٠ / ١٩٠ ثم أورد عن أبي عمر بن عبد البر آثاراً وأقوالاً للدلالة على الفرق بين الاتباع والتقليد .

ويظهر من كلمات ابن القيم السالفة أن قصده بالاتباع هو أن يسر الناظر في الشريعة على طريق الأئمة فيكون متبعاً لهم في طريقتهم التي هي التمسك بالكتاب والسنة واتباع الدليل وليس مقلداً لهم في أقوالهم وإن ظهر له خلافها في الدليل الصحيح ، وقد يكون القصد هو اتباع عالم بعد سؤاله عن دليل المسألة ، ولامشاحة في الاصطلاح فإن كان التقليد

هو السير على مذهب معين في كل مايعرض للانسان من مسائل . والتعصب لهذا المذهب فلاشك أن هذا التقليد مذموم والواجب اتباع الدليل بعد سؤال العلماء عن ذلك . وإن قصد بالتقليد اتباع العلماء المجتهدين رغبة في تنفيذ حكم الله في حياة الفرد فهذا تقليد محمود ، وإن قصد بالاتباع أن يقر في عقل المسلم أنه لامورد له في شؤون حياته إلا الكتاب والسنة فهو متبع لحكمها فهو معنى صحيح وإن قصد به تلك الفوضى والاضطراب الذي يشيع بين بعض المسليمن نتيجة افتراضه أن له قدرة على الفتوى والاستدلال فهذا لايجوز أن تنزلق فيه أقدام الاسلاميين . انظر أضواء البيان ٧ / ٥٤٧ .

ثالثاً : يتضح من متابعة أقوال الأئمة الذين تحدثوا في ذم التقليد والنص على أصحابه وعلى رأسهم ابن القيم يلحظ أن أقوالهم تلك موجهة إلى صنف معين هم مقلدو المذاهب ممن لهم علم بفروع المذهب ، قال ابن القيم في الوجه الثامن عشر في مجلس المناظرة : (أعجب من هذا كله من شأنكم معاشر المقلدين أنكم إذا وجدتم آية من كتاب الله توافق رأي صاحبكم أظهرتم أنكم تأخذون بها ، والعمدة في نفس الأمر على ماقاله لا على الآية ، وإذا وجدتم آية نظيرها تخالف قوله لم تأخذوا بها وتطلبتم لها وجوه التأويل وإخراجها حيث لم توافق رأيه وهكذا تفعلون في نصوص السنة سواء ... وإذا وجدتم مرسلاً قد وافق رأيه أخذتم به وإذا وجدتم مائة مرسل تخالف رأيه أطرحتموها كلها من أولها إلى آخرها وقلتم : لانأخذ بالمراسيل) أعلام الموقعين ٢ / ٢١٤ .

فكلامه هذا يدل على أن المقلد المذكور ليس في رتبة العوام من الناس ويوضح ذلك بجلاء ماذكره ابن القيم في حديثه عن أنواع المفتين فقال :

(النوع الثالث : من هو مجتهد في مذهب من انتسب إليه مقرر له بالدليل ، متقن لفتاويه ، عالم بها ، لايتعدى أقواله ولايخالفها ، وإذا وجد نصَّ إمامه لم يعدل عنه إلى غيره البتة وهذا شأن أكثر المصنفين في مذاهب أئمتهم وهو حال أكثر علماء الطوائف ، وكثير منهم يظن أنه لاحاجة به إلى معرفة الكتاب والسنة والعربية لكونه مجتزئاً بنصوص إمامه فهي عنده كنصوص الشارع ، وهؤلاء لايدعون الاجتهاد ولايقرون التقليد ويقولون : اجتهدنا في المذاهب فرأينا أقربنا إلى الحق مذهب إمامنا فيالله العجب من اجتهاد نهض بهم إلى كون متبوعهم ومقلدهم أعلم من غيره وأن مذهبه هو الراجح ، وقعد بهم عن الاجتهاد في كلام الله ورسوله واستنباط الأحكام منه) .

ويقول في النوع الرابع من المفتين : (طائفة تفقهت في مذاهب من انتسبت إليه وحفظت فتاويه وفروعه وأقرت على نفسها بالتقليد المحض من كل الوجوه فإن ذكروا الكتاب والسنة يوماً ما فعلى وجه التبرك والفضيلة لا على وجه الاحتجاج والعمل ، وإذا رأوا حديثاً صحيحاً مخالفاً لقول من انتسبوا إليه أخذوا بقوله وتركوا الحديث) أعلام ٤ / ٢١٣ .

ثانياً : كما وردت النقول والآثار عن الأئمة تذم القول على الله بغير علم ، بل كان العديد منهم يتحرج من الفتوى ويحيل السائل على غيره من العلماء حتى يطوف الواحد بجمع من العلماء حتى يرجع إلى أول عالم استفتاه .

نقل ابن القيم في (أعلام الموقعين) في باب تحريم الافتاء في دين الله بغير علم والاجماع على ذلك وذكر قوله تعالى : ﴿ وأن تقولوا على الله مالاتعلمون ﴾ (١) وان ذلك يتناول القول على الله بغير علم في أسمائه وصفاته وشرعه ودينه .

وذكر حديث أبي هريرة المرفوع (من أُفتي بفتيا غير ثبت فإنما إثمه على من أفتاه) .

فكلام ابن القيم ليس منصباً على العوام الذين لايستطيعون أي نوع من الاجتهاد بل على من فوقهم من المتعصبين ، والعمل بقول رسول الله ﷺ والعمل بالاجماع ورجوع العامي إلى المجتهد لايسمى تقليداً أصلاً كما ذكر الامام الشوكاني في (إرشاد الفحول / ٢٦٥) :

(لأن فتاوي المجتهدين بالنسبة إلى العوام كالأدلة الشرعية بالنسبة إلى المجتهدين) انظر الموافقات ٤ / ٢٩٢ .

والأصل عند سؤال العالم أو المجتهد أن يتحيز الأكثر ورعاً والأعلم وهذا ماذهب إليه أحمد ابن حنبل وابن سريج والقفال والشاطبي وأما دعوى الاجتهاد حتى للعوام الذين لايملكون أي أداة من أدوات البحث والنظر فهذه دعوة مرفوضة وقد قام ببثها في العصر الحاضر جمال الدين الأفغاني وتلميذه محمد عبده ، وهذه مدرسة معروفة أغراضها وأهدافها . انظر الاسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين .

وكذلك دعوة الاكتفاء بالمذاهب الفقهية دون الرجوع إلى الكتاب والسنة لعدم الحاجة إلى ذلك ، فهذه من أبطل الباطل لأن الكتاب والسنة هما مصدرا التشريع الوحيدان في حياة المسلمين ، وإنما نريد حفظ دين الله من خبط الخابطين وجهل الجاهلين ، والمسلم مطالب بالعلم والتعلم ماأمكنه ذلك والشريعة ليست ألغازاً وأحاجي ، وإنما سبيل العلم التبصر والبحث والاخلاص فمن قدر على ذلك فهو السعيد ، والاعراض عن كتاب الله وسنة نبيه فيه مافيه من الجهل والضلال .

١ ــ البقرة / ١٦٩ .

وقال الزهري عن خالد ابن اسلم وهو أخو زيد ابن أسلم : خرجنا مع ابن عمر نمشي فلحقنا اعرابي فقال : انت عبد الله بن عمر ؟ قال : نعم . قال : سألت عنك فدللت عليك ، فأخبرني : أترث العمة ؟ قال : لاأدري ، قال : أنت لاتدري ! قال : نعم ؛ اذهب إلى العلماء بالمدينة فاسألهم ، فلما أدبر قبل يديه وقال : نعما قال أبو عبد الرحمن ؛ سُئل عما لايدري فقال لايدري .

وقال أبو حصين الأسدي : إن أحدهم ليفتي في المسألة ولو وردت على عمر لجمع لها أهل بدر .

وقال ابن سيرين : لأن يموت الرجل جاهلاً خير له من أن يقول مالا يعلم .

وقال ابن جبير : ويل لمن يقول لما لا يعلم اني أعلم (١) .

وقال في موضع آخر : (فوائد تتعلق بالفتوى مروية عن أحمد : الفائدة الرابعة والعشرون ...

قال في رواية ابن صالح : ينبغي للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عالماً بوجوه الأسانيد الصحيحة ، عالماً بالسنة ، وقال في رواية أبي الحارث : لاتجوز الفتيا إلا لرجل عالم بالكتاب والسنة وقال في رواية ابن حنبل : ينبغي لمن أفتى أن يكون عالماً بقول من تقدم وإلا فلا يفتي) (٢) .

ومن تأمل هذين الأصلين العظيمين اللذين أفاض فيهما الأئمة وجب عليه أن يجمع بينهما حيث أن ظاهرهما قد يوهم التناقض

---

١ ــ أعلام الموقعين : ٢ / ١٨٤ وبعدها .

٢ ــ المصدر السابق : ٤ / ٢٠٥ .

خاصة عند من لم يحقق معنى الاجتهاد والتقليد وحدودهما وشروطهما ، إذ كيف يتأتى لمن لم يحصل العلم اللازم أن يفتي وقد حذرناه من القول على الله بغير علم ونهيناه عن التقليد واتباع الرجال إلا أن يقول بالهوى والتشهي وهو منهي عنه بالاجماع .

وطريق هذا الجمع هو اعتبار الاختلاف في نوعية المسائل من جهة واختلاف درجة المستفتي من جهة أخرى .

فمن المسائل مالايصح فيها التقليد على الاطلاق وهي مايتعلق بتوحيد الله عز وجل في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات لأن أدلة هذه مستفيضة واضحة لتعلقها بأصل الدين ، وقد جعل الله سبحانه أدلة هذه الأمور من الوضوح بحيث لاتحتاج إلا إلى النظر المنصف . أما مسائل الفروع فهي على قسمين :

قسم اشتهرت أدلته واستفاضت بحيث لاتخفى على مسلم كوجوب الصلاة وصوم رمضان وتحريم الزنا والخمر ... فهذا لايجوز تقليد أحد على خلافها . وقسم محل نظر المجتهدين فهو مأجور مرة أو مرتين ، فهذا القسم هو الذي يجوز لمن يحصل أدوات البحث والنظر أن يسأل عالماً تقياً فيتبعه في ذلك وأما المجتهدون — بكافة درجاتهم — فلايحق لهم إلا اتباع الدليل وليس لأحد قول مع قول الله ورسوله ﷺ .

أمثلة من التعصب :

زخر تاريخ الاسلام بأمثلة وضيئة من اتباع الحق وعدم التعصب للرأي والتسامح والاعتدال في الفهم كما شابت وضاءته بعض الأمثلة من التعصب والغلو والتطرف في الرأي والمذهب . فابن الجوزي

الحافظ الذي يعد من علماء الحديث قد اتخذ موقفاً منصفاً حين عرض لطائفة من أهل الحديث الذين لبّس عليهم إبليس بخدعه وتخيلاته ، قال يصفهم : (يسعون وراء الأسانيد العالية والمتون الغريبة مع انشغالهم بهذا عما هو فرض‌عين من معرفة مايجب عليهم والاجتهاد في أداء اللازم والتفقه في الحديث) (١) .

ومن هؤلاء ابن تيمية . فعندما ذكر أصناف الناس الذين يظنون عدم اشتمال الكتاب والحكمة على بيان أصول الدين قال : (وهذا في كثير من المتفلسفة والمتكلمة وجهال أهل الحديث والمتفقهة والمتصوفة) (١) فلايمنعه أنه من أهل الحديث من ذكر أخطائهم .

كما نهج (ابن الآلوسي) في كتابه (جلاء العينين) (٢) منهاجاً خالياً من التعصب ملتزماً بالاعتدال أنصف فيه ابن تيمية من شانئيه ومعارضيه الذين أسرفوا عليه وعلى أنفسهم في نقده والنيل منه وعلى رأسهم ابن حجر الهيثمي ، لأن كلام ابن حجر هو عين التعصب المقيت فقد قال بابن تيمية كلاماً لايقوله عالم ، لأن العلماء لاينقدون بالسباب والشتائم .

ومن أمثلة التعصب كلام السبكي في ابن تيمية فقد عد من نقائص ابن تيمية أنه خالف المذاهب الأربعة في بعض المسائل ، وهذا حق له لأنه مجتهد ، وقد خالف السبكي ماارتضاه هو قاعدة لنفسه في كتابه (الجرح والتعديل) فقد ذكر المنع من قبول الجرح ممن اختلف حاله في العقيدة بين الجارح والمجروح ، ثم قال : (بل الصواب عندنا أنه من ثبتت إمامته وعدالته وكثر مادحوه ومزكوه وندر جارحه فإنا لانلتفت إلى الجرح فيه ونعمل فيه بالعدالة) (٣) .

---

١ — تلبيس إبليس / ١١٤ . ١ — درء تعارض العقل والنقل ١ / ٢٨ .

٢ — الكتاب هو (جلاء العينين في محاكمة الأحمدين) أحمد ابن تيمية وأحمد ابن حجر

بينما نرى ابن تيمية يقول : (هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني فإنه وإن تعدى حدود الله فيّ بتكفير أو تفسيق أو افتراء أو عصبية جاهلية فأنا لاأتعدى حدود الله فيه ، بل أضبط ماأقوله وأفعله وأزنه بميزان العدل) (١) .

ولعل من أبرز أمثلة التعصب الذميم في تاريخ الاسلام هو تعصب المعتزلة لقولهم في خلق القرآن الذي امتحن فيه الامام أحمد بن حنبل وثبت كالطود العظيم أمام المأمون والذين زينوا له هذا القول ، فكان الامام أحمد مثالاً للتمسك بالحق في مواجهة التعصب .

ومن أمثلة التعصب الذميم ماذكره ابن عقيل قال : (رأيت الناس لايعصمهم من الظلم إلا العجز ولاأقول العوام بل العلماء ، كانت أيدي الحنابلة مبسوطة في أيام ابن يونس فكانوا يستطيلون بالبغي على أصحاب الشافعي في الفروع حتى مايمكنوهم من الجهر بالبسملة والقنوت ـــ وهي مسألة اجتهادية ـــ فلما جاءت أيام النظام ومات ابن يونس زالت شوكة الحنابلة ، واستطال عليهم أصحاب الشافعي استطالة السلاطين الظلمة ، فتدبرت أمر الفريقين فإذا بهم لم تعمل فيهم آداب العلم) (٢) .

والحقيقة أن روح الانصاف والبعد عن التعصب قد شاع في كثير من فتاوي وكتابات الأئمة العلماء المجتهدين ، ونحن نحسب أن كل من حاز هذه الدرجة العالية من العلم والفقه في الدين فلا بد له من أن يتحرر من ربقة التعصب الذي هو توأم التقليد كما ذكرنا ، ومن هؤلاء العلماء الشاطبي الذي خالف المالكية في العديد من المسائل ، وابن تيمية الذي خالف الحنابلة بل الأئمة الأربعة مما

الهيثمي .

١ ـــ الفتاوى ٣ / ٢٤٥ .

٢ ـــ القاسمي : الجرح والتعديل / ٣٥ . ٣ ـــ قاعدة في الجرح والتعديل / ٣١ .

أداه إليه اجتهاده ، وأبو المعالي الجويني الشافعي ولكنه كان (حر الرأي والضمير) (١) ، وأمثالهم كثير .

وفي مقابل هذه الصورة الوضيئة نرى مثل الكرخي الحنفي يدعي دعوة عريضة لم يسبق إليها وهي تمثل ذروة التمذهب والتعصب فقد ورد في كتاب (أصول الكرخي) :

(الأصل أن كل آية تخالف قول أصحابنا فإنها تحمل على النسخ أو على الترجيح والأولى أن تحمل على التأويل من جهة التوفيق) (٢) .

وأما في الأحاديث التي تخالف المذهب فيقول :

(الأصل إن كل خبر يجيء بخلاف قول أصحابنا فإنه يحمل على النسخ أو على أنه معارض بمثله ثم صار إلى دليل آخر أو ترجيح فيه بما يحتج به أصحابنا من وجوه الترجيح أو يحمل على التوفيق) (٣) فسبحان الله العظيم ، أن يعتبر الأصل هو صحة المذهب وأن تحمل الآيات والأحاديث بعد ذلك على مايوافق المذهب ؟! ولو قال : يقدم المذهب على من عداه لكانت المشكلة أخف وطأة ، ولكن أن يكون الأصل هو صحة المذهب ويوفق على أساسه الكتاب والسنة ، فهذا خلف باطل وعصبية شنعاء واستبدال المدلول بالدليل ، ولاحول ولاقوة إلا بالله .

١ ـــ مقدمة (الغياثي) تحقيق عبد العظيم الديب .

٢ ـــ / ٣ ـــ رسالة في أصول الكرخي (ملحق لكتاب تأسيس النظر للدبوسي) .

المبحث الثالث

الجهل

الجهل صفة بغيضة في النفس ، مذمومة في العقل ، لايقبل الاتصاف بها أحد عن رضى وقناعة ، ففطرة النفس التي فطرها الله عليها أنها نازعة إلى العلم ، محبة له ، لأنها نازعة للكمال دون النقص وان اختلفت درجات الناس في سلم الارتقاء لهذا الكمال .

والجهل من أسباب التفرق الذي حذرنا الله منه عندما ذكر صفة أهل الكتاب وأن من أسباب العداوة بينهم هو نسيان العلم ﴿فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ (١) .

وقال سبحانه عن الأمم السابقة : ﴿ فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا ﴾ (٢) .

والخوض هو بالاعتقاد الباطل أو التكلم به (٣) .

وقال تعالى : ﴿ ولاتقف ماليس لك به من علم ﴾ (٤) .

ولذلك حث الشرع الحنيف على طلب العلم والسعي

---

١ ـــ المائدة / ١٤ .
٢ ـــ التوبة / ٦٩ .
٣ ـــ ابن تيمية : اقتضاء الصراط المستقيم / ٢٥ .
٤ ـــ الاسراء / ٣٦ .

في تحصيله (١) . روى أنس ابن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال : (طلب العلم فريضة على كل مسلم) كما وردت الأحاديث والأخبار بفضل العالم على غيره فضلاً كبيراً . روى الترمذي من حديث أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من سلك طريقا يلتمس فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب االعلم وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ...)

قال الربيع : سمعت الشافعي يقول : (طلب العلم أوجب من الصلاة النافلة) .

والآيات والأحاديث في الحث على العلم المنافي للجهل كثيرة جدا ويكفي في ذلك مارفع الله به درجة العلماء حين استشهد بهم على ألوهيته ووحدانيته ﴿ شهد الله أنه لاإلاه إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لاإله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (٢) .

وينعي الله سبحانه وتعالى على اليهود والنصارى جدالهم في الله بغير علم وجدالهم في التوراة والانجيل بغير علم ، ويتحداهم أن يأتوا بأثارة من علم كشاهد على مايقولون ، وهذا تعليم وتنبيه منه سبحانه وتعالى بطريق الأولى للمسلمين أن لايقولوا ولايجادلوا بغير علم ، كما حذر رسول الله ﷺ أمته من تعلم علم لاينفع ، لأن العلم الحقيقي هو الذي ينفع الانسان في الدنيا والآخرة ، ورفع الله جل شأنه به أمة أمية جاهلية إلى أمة هي في مرتبة الاستاذية للعالم ، وليس في العالم أمة وسطاً في أقوالها وأفعالها وعلمها كالأمة الاسلامية .

---

١ ـــ راجع : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر .
٢ ـــ آل عمران / ١٨ .

والجهل قد يكون لنقص العلم وقد يكون لعدم وجود العلم النافع وكلاهما حذر الله ورسوله منهما ، بل الجهل هو أحد شِقّي ضلال الناس ، والشق الثاني هو الظلم ، يقول ابن تيمية : (والجهل والظلم هما أصل كل شر كما قال سبحانه : ﴿ وحملها الانسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾) (١) .

والجهل أصل الضلالين ، وأخطر الشرين ، فمن جهل ظلم وتعدى سواء ظلم نفسه أو غيره ، وتعدى على حدود الله تعالى ، والظالم بالضرورة جاهل بما افترضه عليه من العدل أو متناس .

والجهل قد يكون بمعنى الفقد الكمي للعلم كما قال تعالى : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ (٢) أي غير العالم بحقيقة حالهم أو المطلع على خفايا أوضاعهم ، فهو فاقد للعلم بذلك والجهل المنشأ للضلال أعم من ذلك ، إذ قد يكون كمياً وقد يكون كيفياً بمعنى أن العلم ليس علماً حقيقياً ينشأ عنه اليقين .

والحق أن مجرد فقد العلم ليس محلاً للذم في كل حال إلا أن يكون علماً مطلوباً طلب عين على كل مسلم ، والناس إما عالم أو متعلم ، وغير ذلك غوغاء أتباع كل ناعق ، وكل من أهل هذين القسمين يقع فيهم الجهل المؤدي للضلال .

فالقسم الأول وهم علماء الناس ، فإننا نرى أن لهم درجات متفاوتة وأنواعاً متميزة حسب مايصل إليه علم العالم منهم وحسب مجال النظر له ، فعلماء الشريعة درجات ، منهم القادرون على التصدي للافتاء والمختصون بعلم الفقه عامة ومنهم المستقل بدراسة

---

١ ـــ اقتضاء الصراط المستقيم / ٣٧ .
٢ ـــ البقرة / ١٧٣ .

علم معين كالحديث أو الأصول أو غيره ، ومنهم علماء تدارسوا الشريعة وعلومها بشكل عام ومجمل وتعلموا مقاصدها ومآخذها إلى جانب الاحاطة بغير ذلك من العلوم التي تنتظم أحوال المعيشة وتتعلق بأحوال الدنيا وغير ذلك من صنوف العلماء الذين يتخصصون في العديد من فروع العلم المتسقة .

والجهل المؤدي للضلال قد يقع من هؤلاء من نواح :

أولاً : ممارسة الواحد منهم لما لايصح له من العلوم دون تأهل لذلك اغتراراً بقدرته وذهولاً عن حقيقة علمه ومجاله فإذا به ينشغل بالكلام فيما لم يحصل رتبته ولم يبلغ الدرجة التي تؤهله للخوض فيه وإبداء الرأي في مسائله ، وكذلك أن يحاول من هو في طبقة من طبقات العلم أن يتعداها دون تحصيل شروط الطبقة التي قبلها ، فيضع نفسه في غير موضعها فيضل ويُضل نفسه ويكون بهذه الصفة من الجاهلية وإن من تمام فقه الفقيه وعلم العالم أن يعرف قدر نفسه فلا يتعداه وأن يحقق مجاله العلمي فلا يخرج عنه ، ولا يتصدى لما ليس له به بأهل ، فهو إن كان من علماء الحديث المتخصصين فمجاله في علم الحديث واسع ولاعليه أن لايفتي في مسائل كثيرة تحتاج إلى أدوات أخرى من الأصول واللغة ومنهم الواقع والعيش مع مشكلات الناس والغوص الدقيق في كتب الفقه ، وقل مثل ذلك لمن حصل القدرة على الفتوى فليس له أن يفتي بدون التحقق من صحة الحديث أو أن يتحدث في الرجال وجرجهم وتعديلهم دون أن تكتمل له أداة البحث في علم الحديث ، والأنكى من هذا هو من يتصدى للافتاء وليس بين يديه أي أداة من أدوات الاجتهاد وإنما شذرات في بعض العلوم المتفرقة .

وإن ماذكرناه إنما ينشأ لما يجده الواحد من هؤلاء في نفسه من خوف من التقصير وكراهة أن يسأل عما لايعرف فيقول : لاأدري وجباً في أن يظهر وسط الطلاب والمريدين والاتباع بمظهر من لاتخفى عليه خافية وفي هذا مافيه من الخطأ والجهل .

نقل ابن القيم : (وصح عن ابن مسعود وابن عباس : من أفتى الناس في كل مايسألونه عنه فهو مجنون ، وقال ابن مسعود : من كان عنده علم فليقل به ، ومن لم يكن عنده علم فليقل : الله أعلم فإن الله قال لنبيه : ﴿ قل ماأسألكم عليه من أجر وماأنا من المتكلفين ﴾ (١) .

وقال ابن سيرين : لأن يموت الرجل جاهلا خير له من أن يقول مالا يعلم .

وقال مالك : من فقه العالم أن يقول : لاأعلم . فإنه عسى أن يتهيأ له الخير . وقال الشعبي : لاأدري نصف العلم) (٢) .

ثانيا : إن الجهل قد يكون خصيصة من خصائص بعض العقول رغم تراكم المعلومات والمعارف فيها تراكماً كمياً ، فيكون صاحب هذا العقل جاهلاً رغم مايختزنه عقله من معرفة وعلم ، ومرد ذلك ـــ فيما نحسب ـــ إلى عدم التمكن من ربط هذه المعارف المكتسبة بعضها ببعض ربطاً منطقياً صحيحاً متسلسلاً ليؤدي إلى علم حقيقي هو الاحاطة بحقائق تلك المعارف ومقاصدها وغاياتها ثم الخروج بنتائجها ولوازمها في شكل واضح مترابط ، قال تعالى : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ (١) .

---

١ ـــ سورة ص / ٨٦ .   ١ ـــ الجمعة / ٥ . يقول القرطبي في تفسيره : ←
٢ ـــ أعلام الموقعين ٢ / ١٨٥ .

فهؤلاء جمعوا الأسفار في عقولهم دون أن يفقهوا لها معنى أو يحيطوا بمغزاها خبراً ، فكان منهم من لم يربط أوامرها ونواهيها بمقاصدها وغاياتها فاستوى عندهم لفظها ومعناها وغابت عنهم حكمتها فكانوا رواة أخبار لاعلماء أحبار ، ومنهم من حفظ ألفاظها وعرف أشكالها ورواياتها ثم ادّعى عدم كفايتها بالمطلوب وأن لادلالة لألفاظها إلا على وجه من المعاني يريده هو فهدم بذلك الشريعة وهو يحسب أنه يحسن صنعاً .

فالظاهرية أرباب النصوص جهلوا مدلولات الألفاظ وأنها تراد لمعانيها وأن للشريعة مقاصد ومعان تحقق المصلحة وتدرأ المفسدة على أكمل الوجوه فعطلوا المعاني في سبيل الألفاظ .

و (العقلانيون) من معتزلة ومن نحا نحوهم ممن عظموا العقل وحكّموه من أهل الرأي المذموم ، بخسوا الشريعة قدرها ورفعوا العقل فوقها بينما هو تابع لامتبوع فعطلوا النصوص في سبيل الرأي والعقل بل الهوى .

يقول ابن تيمية في تفسير آية المائدة (﴿ فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ (١) فلما أعرضت الطائفتان [طائفة العقلانيين ، وطائفة الذين يأخذون النصوص بدون الدلالة التي فيها والبراهين على صدق الرسول ...] لما أعرضوا عن الطريقة الصحيحة حصل لهم التفرق) (٢) .

وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم مافيه لئلا يلحقه من الذم مالحق هؤلاء ١٨ / ٩٤ .

١ ـــ المائدة / ١٤ .

٢ ـــ الفتاوى ١٩ / ١٦١ .

ومن هنا كان جهل هذه الطائفة هو منشأ التفرق ، وهم كانوا رؤوس البدع إذ أن ابتداعهم عادة يكون في أصل كلّي من أصول الشريعة وقواعدها العامة .

يقول الشاطبي في الاعتصام في بيان السبب الذي يرجع إليه التفرق :

(وهو الجهل بمقاصد الشريعة والتخرص على معانيها بالظن من غير تثبت أو الأخذ فيها بالنظر الأول ولايكون ذلك من راسخ في العلم . ألا ترى أن الخوارج كيف خرجوا من الدين كما يخرج السهم من الصيد المرمى ؟ لأن رسول الله ﷺ وصفهم بأنهم يقرؤون القرآن لايتجاوز تراقيهم ، يعني ـــ والله أعلم ـــ أنهم لايتفقهون به حتى يصل إلى قلوبهم لأن الفهم راجع إلى القلب فإن لم يصل إلى القلب لم يحصل فيه فهم على حال ، وإنما يقف عند محل الأصوات والحروف فقط وهو الذي يشترك فيه من يفهم ومن لايفهم) (٣) .

وكل الذي ذكرناه ان صحت النية وحسن القصد ، وأما ان فسدت النية وانحرف القصد فالعالم يتخذ علمه وسيلة لتحصيل منفعة في الدنيا أو إرضاء للسلطان ، فينحرف بعلمه وينحرف به علمه إلى مهاوي النفاق والمداراة والرضى بالدون وبيع الدين بالدنيا .. وهو جهل مضاعف .

وثالثاً : قد نبه شيخ الاسلام ابن تيمية على بعض أنواع الجهل المنشىء للاختلاف والضلال . قال في بيان أسباب الاختلاف :

---

٣ ـــ الاعتصام للشاطبي ٢ / ١٨٢ .

(ويكون سبب جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه أو الجهل بالدليل الذي يرشد به أحدهما الآخر . أو جهل أحدهما بما مع الآخر من الحق في الحكم أو الدليل) (١) .

فمنها جهل المتنازعين بالأمر المتنازع فيه أصلاً وعدم الاحاطة بعلمه في كل نواحيه ، بل كل من الفريقين لم يفهم عن الشريعة في مقصدها على الحقيقة ، إذ لو فهموا هذا القصد لما حدث التنازع فالشريعة ــ حين تفهم على حقيقتها ــ ترفع التنازع بين المختلفين ، قال تعالى : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (٢) .

فحيثما وجد الاختلاف ــ المؤدي للتفرق والبدعة ــ فثم الجهل وعدم الفهم الصحيح للشريعة .

قال في الطحاوية : (بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الاسلام وهو أصل كل خطأ في الفروع والأصول ولاسيما إن أضيف إليه سوء القصد) (٣) وهذا المعنى قريب مما قررناه سابقاً .

وإنما يتفرع من تصور آخر للجهل بين المتنازعين وهو عدم تحقيق النقطة المحددة التي يدور حولها النزاع ، فنجد أن كلاً من الفريقين يتحدث عن نقطة ليست هي التي يتحدث عنها الفريق الآخر ، فيستعر الخلاف بينهما ! ولو قام كل فريق بتحديد النقطة التي يتحدث فيها بدقة لحُسم الخلاف في كثير من الأحيان وهذا التحديد هو مايطلق عليه الأصوليون تحرير موضع النزاع .

١ ــ اقتضاء الصراط المستقيم / ٣٧ .
٢ ــ النساء / ٨٢ .
٣ ــ شرح الطحاوية / ٤٥٢ .

كما يتفرع عنه أمر آخر لايقل عنه أهمية ، وهو أن كثيراً من الخلاف يكون بسبب عدم تحديد معاني المصطلحات المستخدمة في الحوار بدقة ، فإن الكثير من الخلط في الفهم يكون ناشئاً عن أن المصطلح المستخدم أو اللفظة المتداولة يكون فيها اشتراك أو إجمال .

والاشتراك : هو أن يدل اللفظ على عدة معان بالتساوي ومثاله العين : فهي تطلق على العين المبصرة وعلى الجاسوس وعلى الذات ... وكذلك القرء في الشرع قديطلق على الحيض أو الطهر .

والاجمال : هو أن ينطوي تحت اللفظ عدة معان محتملة إن يراد باللفظ معنى محدد منها دون سواه من المعاني . وفهمه يحتاج إلى أن ينضم إلى ذلك اللفظ دليل آخر ليوضح المعنى الصحيح لهذا اللفظ المجمل .

ومثاله : قوله ﷺ : (صلوا كما رأيتموني أصلي) (١) .
فهذا كلام مجمل يجب أن ينضم إليه معرفة حاله ﷺ في الصلاة لمعرفة معنى هذا الكلام والقصد به على الحقيقة .

يقول ابن تيمية : (وأكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء ، وفي ذلك من فساد الدين والعقل مالايعلمه إلا الله) (١) .

ويعبر الدكتور جبسون عن نفس المعنى بقوله : (والواقع أن عجز الناس عن الوصول إلى تفاهم متبادل كثيراً مايكون ناشئاً عن أنهم يؤولون الكلمة الواحدة تأويلات مختلفة .

١ ــ شرح السنة للبغوي : ٢ / ٢٩٦ .
١ ــ درء تعارض العقل والنقل ١ / ٢٣٣ .

ولذلك يتعين على الفرقاء المعنيين بالأمر أن (يتكلموا اللغة نفسها) أي أن عليهم أن يسموا الشيء الواحد باسم واحد) [٢] .

وأما عوام الناس والذين فيهم المتعلمون الطالبون للحق وفيهم الدهماء الذين لايميزون بين حق وباطل . فهؤلاء ينشأ ضلالهم من نواحي منها :

أولاً : أن يجمع بين العجز عن البحث والنظر للوصول إلى الحق وبين اعتقاد وخلاف ذلك الحق إما تقليداً ، أو اتباعاً لهوى لأن العلم المطلوب هنا هو مايمكن الفرد من عدم الوقوع في مزالق الهوى وأن يجعله مدركاً لما يحاك حوله من دسائس ، وماتتخذه الجاهلية من صور وأشكال يمكن التمويه عليه فإنما (ينقض الاسلام عروة عروة من نشأ في الاسلام ولم يعرف الجاهلية) كما قال عمر رضي الله عنه .

وإنما يحصل الضلال لمن يظن أنه يسهل عليه الوصول إلى العلم الحقيقي بمجرد نظرات في وريقات أو الاستماع لبعض الكلمات من العلماء فيتصدرون للكلام في الدين ومسائله .

ثانياً : اتباع كل ناعق والسير وراء أي شعار مرفوع وهو جهل اتباع المبتدعة في كل زمان ، وإنما يكون ذلك لأن هناك صفة أخرى في المرء تضاف إلى فقده للعلم وهي فقده للفطرة السليمة وللعقل البديهي الواضح . ذلك أن الجهل ليس قسيماً للعقل وإنما هو قسيم للعلم . فقد يكون المرء قليل العلم ولكن يكون كذلك من العقلاء الذين لايسهل التمويه عليهم أو جر أقدامهم بالشبهات أو مجرد الشعارات والعبارات ، وهذا القدر من العقل البديهي المستمد من

٢ ـ كيف تفكر / ٤٣ .

الفطرة السليمة من الفساد هو الذي يقوم عليه أتباع الهدي المحمدي من عوام الخلق ، وهو الذي اعتمد عليه القرآن الكريم في عرض أدلة دعوته فهو لايعرض لمعوصات الأمور أو متعمقات الأدلة والبراهين بل يكتفي بالسهل القريب التناول على من صلحت فطرته وانشرح صدره ، فإن ذلك كاف للهداية في الإسلام .

فجهل الأتباع إذن فساد في الفطرة وفقدان للتميز وعمى في القلب يجعل المرء غير قادر على رؤية الحق مع وضوحه وجلائه . فالحذر الحذر من كلا الصنفين جهل الرؤوس وجهل الأتباع .

وليعض أحدنا بنواجذه على مااتفق عليه السلف الصالح من أصول وقواعد ولانخرج عنها بحال ، ثم لانأخذها إلا من مظانها وممن هم للإدلاء بها إلينا أهل ، ولانلتقي بالنظر الأول دون البحث والتمحيص أو فلنتق الله ولنحاول رؤية الحق من أي جهة سطع بمنظار الفطرة ومعيار البديهة ولايمنعنا مانع منه سواء مانع التعصب أو الهوى أو الجهل أو أي شعار من الشعارات التي ترفع لتمنعنا عن رؤية الحق الساطع .

الفصل الثاني

العوامل الخارجية

مقدمة :

شكل الاسلام قوة دافعة هائلة اندفع بها الجيل الأول من الصحابة في أنحاء البلاد المحيطة بجزيرة العرب مهد الاسلام ، مزودين بتراث عظيم من الذكرى الحية لحياة الرسول ﷺ وأحاديثه الشريفة التي هي مكمل ومبين لآيات الكتاب الحكيم ، واتخذ الجهاد خطاً بارزاً وثابتاً في حياة هذا الجيل الفريد مجسدين قول الله تعالى : ﴿ قاتلوا المشركين كافة ﴾ (١) وقول رسول الله ﷺ : (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم) (٢) .

بهذا الاندفاع إلى خارج الجزيرة العربية بدأ عهد جديد عرف بعهد الفتوحات وكانت البداية الأولى له في عهد الصديق أبي بكر حيث استمرت الفتوحات الكبرى ــ والتي شكلت فتح أكبر الأمصار التي كانت لها الأثر العظيم في التفاعل والتأثير ــ إلى عهد عثمان رضي الله تعالى عنه .

---

١ ــ التوبة / ٣٦ .

٢ ــ جامع الأصول ٢ / ٥٦٤ ــ أخرجه أبو داود والنسائي وهو صحيح .

فقد تم فتح الجزء الغربي من العراق في عهد أبي بكر من بين عامي ١١ ــ١٣ هـ على يد خالد والمثنى ، ثم استكمل فتح بقية العراق (الجزء الشرقي) في عهد عمر الفاروق ١٣ ــ ١٩ هـ حيث كانت موقعة القادسية وبطلها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

وكذلك فقد فتحت الشام في عهد أبي بكر الصديق على يد خالد في موقعة اليرموك ثم استكمل فتحها في عهد عمر تحت لواء أبي عبيدة عامر بن الجراح رضي الله تعالى عنه .

وقد كانت وقعة نهاوند ــ أو فتح الفتوح ــ هي المدخل لبلاد فارس في عهد عمر بن الخطاب حيث كان بطل هذه الموقعة النعمان ابن المقرن ، ثم تداعت بعدها بلاد فارس وسقط عرش كسرى للأبد ، واستكملت الفتوحات بها في عهد عثمان تحت قيادة العديد من زعماء قيادات العرب كالأحنف بن قيس وعبد الله بن عامر .

كذلك فتحت السند ــ في عهد متأخر نسبياً ــ في عهد الوليد ابن عبد الملك عام ٩١ هـ حيث وجّه الحجاج بن يوسف الثقفي محمد ابن القاسم الثقفي ففتحها ، ثم فتحت بقية أجزاء الهند ككابل وكشمير في عهد المنصور .

ومما يجدر ملاحظته مما سبق من استعراض سريع لحركة الفتوحات أن أكثر الأمصار الكبرى الهامة ذات الحضارات العريقة والديانات القديمة قد تم فتحها في السنوات العشرين الأولى للهجرة تقريباً ، وقد أدى ذلك ــ فيما نرى ــ إلى سرعة سريان عوامل التأثر والتأثير فيما بين المسلمين وبين غيرهم من أبناء الأمم المفتوحة ، وبين الفكر الاسلامي ــ الحضارة المبنية على أساسه ــ

وبين الحضارات الأخرى التي بنيت على أساس فكر وثني ملحد (١) أو عقلي بشري (٢) أو كتابي محرّف (٣) .

كان من نتيجة انتشار الفتوحات على كل تلك الرقعة من الأرض أن اختلط العرب المسلمون الفاتحون بغيرهم من الشعوب التي تعيش في تلك الأنحاء ، وبطبيعة الأمر ــ كما أسلفنا ــ كان لكل منها تراث فكري عقائدي خاص ، كما أن لها عاداتها وتقاليدها وطبائعها ومزاجها وعقليتها الخاصة بها ، والتي هي تراث أجيال عديدة انحدرت للأبناء من الأجداد فترسبت في نفوسها وفي هيئتها الاجتماعية والعقلية على السواء . وكان من نتيجة هذا الاختلاط أن تأثر الفاتحون ــ بعض التأثر ــ بما عليه أهل الأمم المفتوحة ، كما تأثرت تلك الشعوب بما حمل لها الفاتحون من دين ولغة وأخلاق وعادات ومناحي عقلية هي كلها مندرجة في ثنايا هذا الدين الجديد ، وإن كان تأثر الأمم المفتوحة بما حمل لها الفاتحون أقوى كثيراً من تأثير تلك الأمم في العرب الفاتحين ، وذلك لأن من عادة المغلوب أن يتأثر بالغالب ويترسم خطاه في كل مناحي الحياة فما بالك والغالب قد جاء بدين جديد يدعو إلى الاتباع أول مايدعو والالتزام بما عليه المسلمون من خلق وعادات وهيئات اجتماعية ومناهج عقلية يتمثل في عبادات ومعاملات تشمل كل دقائق الحياة اليومية للمسلم .

ومما لاشك فيه أن كل أمة من الأمم أثرت بنوع من التأثير يناسب ماكانت عليه قبل الاسلام ــ كما سنرى في بحثنا التفصيلي فيما بعد ــ فكان تأثير الفرس مخالفاً للروم وكلاهما مختلف عن أثر الهنود أو الأثر اليهودي (١) .

١ ــ كالفارسية والهندية .
٢ ــ كاليونانية .
٣ ــ كالرومانية النصرانية أو اليهودية .

١ ــ راجع ضحى الإسلام : أحمد أمين ١ / ٥ للمزيد من التفاصيل .

عامل آخر من العوامل التي أثرت في الخط الاسلامي الواضح ، فأدت إلى ظهور تلك الفرق المنحرفة عن نهج العقيدة السلس المشرق ؛ وهو ترجمة الكتب التي تحمل ثقافة تلك الحضارات والثقافات التي غزاها المسلمون في مهدها

وهذا العامل ــ فيما نرى ــ كان قليل الأثر في نشأة هذه الفرق لأن حركة الترجمة لم تقو وتشتد إلا في العصر العباسي ــ خاصة في عهد المأمون ثم من بعده ــ وإن كان هناك بعض الترجمات في العصر الأموي إلا أنها كانت كتباً طبية في غالبها مثلما حكى القفطي في أخبار الحكماء :

(ماسرجويه الطبيب البصري كان إسرائيلياً في زمن عمر بن عبد العزيز ، وربما قيل في اسمه ماسرجيس وكان عالماً بالطب ، تولى لعمر بن عبد العزيز ترجمة أهرن القس في الطب وهو كناش فاضل من أفضل الكنانيش القديمة) (٢) .

إلا أن مما لاشك فيه أن هذه الترجمات لكتب العقائد والالهيات اليونانية وغيرها من كتب الفلسفة قد كان له أكبر الأثر في فكر الفرق بعد أن تطور من مرحلته الأولى والتي كانت غالباً ماتناقش أفكاراً أبسط بكثير من تلك المسائل التي تناولتها مؤخراً بعد انتشار تلك الكتب وبعد ازدياد حركة الاختلاط التي تحدثنا عنها قبل قليل ــ والتي سنتناولها بقليل من التفصيل عند دراستنا لتلك الفرق ــ وعلى سبيل المثال لا الحصر فقد كانت المسألة التي دار حولها وجود فرق المعتزلة في أول أمرها هي موقف مرتكب الكبيرة وهل هو مسلم أم كافر أم في منزلة بين المنزلتين ؟

٢ ــ عن فجر الاسلام / ص ١٦٣ .

وهو ماأدى بواصل ابن عطاء رأس المعتزلة إلى اعتزال حلقة الحسن البصري بعد خلافهما حول هذه النقطة وقد كان ذلك في بداية القرن الثاني الهجري وفي أواخر العهد الأموي [توفي ابن عطاء ١٣١ هـ] ، ولكن المذهب تطور واتسع وشمل الكثير من المسائل الفلسفية وبالطرق الفلسفية كما يتضح من دراسة أقوال أبي الهذيل العلاّف المتوفي ٢٣٥ هـ حيث بحث في طبيعة الجسم وفي الجوهر الفرد والكمون وعلة الخلق وما إلى ذلك .

يقول الشهرستاني في الملل والنحل مثبتاً تطور أساليب الفرق وأفكارها : (ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين فسرت أيام المأمون فخلطت مناهجها بمناهج الكلام) (١) .

ويقول أحمد أمين في صدد حديثه عن الأدوار التي مرت بها الترجمة في العصر العباسي : (ومن أشهر المترجمين في هذا الدور ــ الأول ــ ابن المقفع وقد تقدمت ترجمته وجورجيس بن جبرائيل ويوحنا بن ماسويه وكلاهما كان طبيباً نصرانياً ــ وفي هذا الدور اتصلت المعتزلة بالكتب التي ترجمت فنجد الأولين منهم كالنظام عرف أرسطو وعرف بعض كتبه في الفلسفة وتأثرت أبحاثهم بالمنطق وتكلموا في الطفرة والجوهر والعرض ...) (١) .

وقدنقلت كتب أرسطو وشروحها وكتب أفلاطون وبعض كتب جالينوس في الطب وغير ذلك . وقد كان الخطأ في الترجمة شائعاً وذلك من المترجمين الأصليين الذين نقلوا الكتب من اليونانية إلى السريانية ثم إلى العربية وهم غالباً من النصارى النساطرة كما أن النقل

١ ــ الملل والنحل للشهرستاني : هامش ابن حزم ١ / ٣٢ .
١ ــ الضحى ١ / ٢٦٤ .

في مثل هذه الأمور — كالالهيات — يؤدي إلى الاختلاف في الفهم عن مراد المؤلف الأصلي ، إلى جانب الاختلاف بين اللغات وبعضها في معاني المفردات والتراكيب .

يقول البيروني : (ولكن من الألفاظ مايسمح في دين دون دين ويسمح به في لغة وتأباه أخرى ومنها لفظة (التأله) في دين الاسلام فانا إذا اعتبرناها في لغة العرب وجدنا جميع الأسامي التي سمي بها الحق المحض متجهة على غيره بوجه ماسوى إسم (الله) فإنه يختص به اختصاصاً) (٢) .

بينما قد وصفت الذات الالهية في الترجمات العربية عن اليونانية والسريانية بأوصاف لاتليق به سبحانه . فترجمة الالهيات عنهم أدى إلى زيادة التعقيد والتكلف .

وعامل آخر كان له بعض التأثير في امتداد هذه الفرق وتغذية أفكارها وتنمية أنصارها ، ذلك هو مانشأ من رق وموالي نتيجة تلك الفتوحات الظافرة فقد انتشر الرقيق المجلوب من كافة أرجاء البلدان المفتوحة وأصبح في كل البيوت رقيق يعمل لأصحابه فكان هناك عبيد وإماء : سودانيون وأتراك وأحباش وروم وأرمن وسنديون ، وكان لكل من هؤلاء طبائع مختلفة ونواحي يبرز فيها عمن سواه تختلف باختلاف موطنه وأهله وطباعه كذلك فإن كثيراً من الموالي الذين دخلوا الاسلام من جديد وليسوا بالضرورة من الرقيق لم يكونوا على تلك الدرجة العالية من الفهم الاسلامي ، بل إن كثيراً منهم دخل الاسلام خوفاً وطمعاً وهو يحمل في نفسه بقايا دينه وتقاليده ، وعاش بها بين المسلمين ، فأخذوا عنه كما أخذ عنهم .

٢ — تحقيق ماللهند من مقولة / ٢٧ .

ونسرع إلى القول بأن هذا العامل كان ضعيف التأثير في نشأة الفرق ، ولكنه كان قوي التأثير في استمرارها وتطورها إبان العهد العباسي ، ولايمنع هذا من أن كثيراً من الموالي قد شرفهم الله بالاسلام فكانوا سادة من سادات العلم والفضل بل قد تفوق الكثير منهم على الكثير من العرب ، وشكلوا حركة إسلامية علمية عظمى . وكانوا حفظة للدين وقادة للأمة ، ومن أعلامهم الحسن البصري ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبير وغيرهم كثير ممن ارتفعت أقدارهم بين الناس بعلمهم وورعهم سواء كانوا من الموالي أم من العرب .

وأخيراً لابد من القول بأن التشبه بالكفار هو أصل البلاء كما يقول ابن تيمية : (إن من أصل دروس الدين وظهور الكفر والمعاصي هو التشبه بالكافرين ، كما أن أصل كل خير المحافظة على سنن الأنبياء وشرائعهم) (١) .

فنحن وإن كنا لانضخم من أثر العوامل الخارجية ، ولكن لانشك في أن لها أثراً في ضعف المسلمين وتفرقهم ، وتحذير الرسول ﷺ من التشبه بالأعاجم أو باليهود و النصارى أكبر دليل على ذلك . وهذه هي العوامل الخارجية نوضح أثرها بشكل إجمالي لنبين موضع الداء ، وأما دراستها بالتفصيل فله موضع آخر .

أولاً : أثر الفرس :

كان للفرس أثر جد خطير في الجو الديني الاسلامي سواء في فارس أو في البلاد الاسلامية الأخرى التي انتقل إليها الفرس بعد

١ — اقتضاء الصراط المستقيم / ١١٦ .

الفتح ، وذلك أن الفرس كانوا قبل الاسلام أهل حضارة عريقة وأصحاب دين قديم (٢) ، فقد ظهرت الديانة الزرادشتية التي تقول بإلهية اثنين : إله النور والخير وإله الظلمة والشر ، كما ظهرت الديانة المانوية ، وقد تأثرت بمذهب النصارى في الرهبنة والانقطاع عن الدنيا ، ثم عرفوا المزدكية وهي ديانة فاسدة تدعو إلى الاباحية في النساء والشيوعية في الأموال ، كذلك عرف عن الفرس من قبل ومن بعد عبادة النار واتخاذها رمزاً للخير ، فجعلوا لها المعابد وخصّوها بالعبادة والاجلال .

كما كان للفرس نظرة خاصة إلى ملوكهم — وأسرهم المالكة — فهم يجعلونهم في مصاف الآلهة المعبودة فلهم حق التأله على الناس وهو حق ينتقل في هذه الأسر بالوراثة وقد ظهرت هذه النزعة من الفرس اتجاه ملوكهم الأكاسرة والساسانيين .

وبعد أن تم الفتح الاسلامي لبلاد فارس ، ودخل الفرس في دين الله أفواجاً ، لم يكن من السهل أن يعرف كل هؤلاء الداخلين الاسلام كما أراده الله عز وجل فالاعداد المسلمة غفيرة والعادات والأفكار والأديان القديمة متأصلة في النفوس فكان أن ترعرعت نبتة (الرفض) البغيضة في تلك البلاد ، واستمدت أفكارها الرئيسية بشأن الامام المعصوم وآل بيته المقدسين مما رسخ في الأذهان من قديم .

يقول ضياء الدين الريس : (وبعد انتهاء عهد الخلفاء الأول وبعد معاوية ظهر جيل جديد من أمة الفرس ، جيل لم يعرف دولة الفرس القديمة ولم يشهد الفتح ، وقد نشطت حركة تحريره ، فأقبلوا

٢ — انظر الملل والنحل للشهرستاني .

جماعات على اعتناق الاسلام وأخذوا يفدون إلى المدن الكبرى ، فكانت الفكرة الشيعية أكثر الأفكار ملاءمة لعقولهم ، فالفارسي يفهم جيداً الحق الالهي للملوك ، والفارسي لم يكن يستطيع أن يتصور أن يوجد خليفة بالانتخاب ، وإنما المبدأ الوحيد الذي يمكن أن يفهمه هو مبدأ الوراثة وليس من المبالغة إذن في شيء أن يقال أن البيت النبوي وقد مثله (آل علي) قد حل في قلوب هؤلاء الفرس واعتبارهم محل البيت (آل ساسان)) (١) .

وقد كانت تظهر على عدة شخصيات من الشخصيات الفارسية التي اعتنقت الاسلام وكان لها شهرة فيه — كانت تظهر منها نزعة الحنين إلى الفارسية ودينها ، فتظهرها حيناً وتبطنها حيناً آخر كالبرامكة وآل سهل ؛ فهذا الفضل بن سهل — المسمى بذي الرياستين — يبعث بعض الأحداث من أهله للتعلم في خراسان حيث يتشربون الأثر الفارسي (وقد عرف عن البرامكة إيواءهم لمن يرمي بالزندقة وكان هشام بن الحكم الرافضي منقطعاً إلى يحي بن خالد البرمكي وكان القيم بمجالس كلامه ونظره ، وقد ألف كتباً كثيرة) (١) .

يقول أحمد أمين : (وسبب ثان هو أن بعض الفرس رأوا أن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين لم يحقق مطالبهم فقد انتقلوا من يد عربية وهي اليد الأموية إلى يد أخرى هي يد العباسيين ، ومطمح نفوسهم أن تكون الحكومة فارسية في مظهرها وحقيقتها ، في سلطتها ولغتها ودينها ، ورأوا أن ذلك لايتحقق والاسلام في سلطانه فأخذوا يعملون لنشر المانوية والزرادشية والمزدكية ظاهراً إن

١ — ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الاسلامية / ٧١ .

أمكن وخفية إذا لم يمكن)[1] .

والحق أن الأثر الفارسي قد ظهر كأشد مايكون في بدعة (الرفض) أو التشيع كما يود الرافضة أن يطلقوا على أنفسهم ترغيباً في بدعتهم وإخفاءاً لعوارهم ، وكما يطلق عليها بعض من انخدع بأقوال الرافضة من أهل السنة (الطيبين) ـــ فكانت بلاد فارس هي المحضن الطبيعي لتلك البدعة الشنعاء وفيها اثمرت ومنها انطلقت الطموحات الرافضة من الدولة البويهية لفارس إلى دولة الرافضة بإيران في عصرنا الحالي وسيكون المجال أرحب للتفصيل عن ذلك في البحث المخصص للروافض بإذن الله تعالى عند دراسة الفرق الكبرى .

ثانياً : أثر اليونان :

كان لاتصال المسلمين بالفكر اليوناني أثر عميق في عدة نواح من جوانب الفكر الاسلامي الذي خرج عن أصالته وبساطته في تلك النواحي التي اتصل فيها بفكر اليونان . وقد كان أهم جانب استأثر بالأثر اليوناني هو جانب العقيدة ومايتعلق بها من مباحث .

فاليونان قد عرفوا من قديم الزمان بالبحث الفلسفي ، وقد كانت لديهم عدة مدارس فلسفية تقيم كل مدرسة منها بناءاً عاماً يدرس من خلاله أصل الوجود والانسان والعلاقة بين الخالق ـــ في حالة أن تكون المدرسة تعترف بوجود خالق كالمدرسة الأرسطية ـــ والمخلوق وماهية الخالق وطريقة الخلق وطبيعة الانسان ... إلى غير ذلك عن طريق العقل ... والعقل وحده وقد

---

١ ـــ ضحى الاسلام / ١٩٤ بتصرف .

وضعت كل مدرسة من تلك المدارس نظرية تعالج فيها كل تلك الأمور من وجهة نظر مؤسسها ومن عمل تمم البناء من بعده ، وكانت هذه المدارس بطبيعة الحال تتقارب فيما بينها بشأن ماتبحثه من قضايا وذلك شأن الباحث المعتمد على العقل وحده في خضم تلك المباحث التي لاسلامة في النظر فيها إلا بمنار الوحي واستلهام الشرع .

وليس مجالنا في هذه العجالة أن نستعرض تلك المدارس الفلسفية التي أنتجها العقل اليوناني في محاولته للوصول إلى الحق بمعرض عن الوحي الالهي ولكن قد يكون لمدرسة أرسطو بالذات متسع بالشرح والتفصيل عند التعرض لدراسة الاعتزال في موضعه الخاص من هذه المباحث عند إستعراض الفكر الاعتزالي ودور المعتزلة كفرقة مبتدعة ذلك أن تلك المدرسة كان لها أكبر الأثر في ذلك الفكر الابتداعي سواء في جانبها الفلسفي أو المنطقي ودورها في إنشاء ماسمي بعلم (الكلام) أو (التوحيد) كما أطلق عليه مؤيدوه باعتبار أنه الدفاع عن التوحيد الاسلامي في مواجهة الفكر اليوناني الملحد وبطريقة ذلك الفكر نفسه !

وقد كان من أول مانقل إلى العربية من نتاج تلك العقلية هو ماترجمه ابن المقفع من كتب المنطق الأرسطي ، وإن كان الاتصال في أول الأمر قاصداً على العلوم الطبية كما حدث في عهد عمر بن عبد العزيز حين ترجم له ماسرجويه الطبيب ـــ وكان اسرائيلياً ـــ كتاب اهرن القس في الطب .

ثم أصبح شائعاً في العهد العباسي نقل العلوم العقلية اليونانية من فلسفة ومنطق بشكل منظم ومكثف في عصر المأمون العباسي وبعده .

ورغم أن الأثر اليوناني قد ظهر كأشد مايكون في فكر من يسمون بفلاسفة الاسلام كالفارابي وابن سينا وفي فكر المعتزلة إلا أنه قد أثر في مناهج الفكر بشكل عام عند بقية الفرق ، بل وعند بعض علماء أهل السنة الذين دافعوا عن علم (الكلام) الذي استقوه من المنهج المنطقي اليوناني وقد تجلى ذلك في كتابات أئمة (الأشاعرة) كما سيتضح بعد .

ثالثاً : أثر الهند :

كان فتح السند على يد محمد بن القاسم الثقفي أيام الوليد بن عبد الملك عام ٩١ هـ ثم توسع الفتح في أيام المنصور العباسي عام ١٤٢ ففتحت كابل وكشمير ، وكان الاتصال بين العقلية الهندية بثقافتها وديانتها وبين المسلمين الفاتحين عن طريق التجارة أو الاقامة للفاتحين في البلاد الجديدة أو بنقل الثقافة و ترجمتها كما حدث بالنسبة للفارسية أواليونانية .

وقد كان من أهم ماأثر به فكر الهنود في الفرق المبتدعة في الاسلام هي فكرة (التناسخ) [1] فقد نشأت عدة فرق تقول بهذه الفكرة منها السبأية من الروافض .

كذلك تأثرت الصوفية بالهندوكية ، يقول البيروني في كتابه تحقيق ماللهند من مقولة : (وإلى طريق (باتنجل) ذهبت الصوفية

١ ــ وفكرة التناسخ التي ذكرناها هي أن الله سبحانه يبعث المسيء العاصي في جسد كائن أحط منه مستوى كالكلب أو الحمار أو الخنزير حسب معاصيه ليتعذب في ذلك الجسد ، أما المطيع فإنه يبعث في جسد كائن أرقى أو يظل روحاً هائماً أو يفنى فناءاً تاماً ! راجع الفصل لابن حزم ج ١ / ص ٩٠ .

في الاشتغال بالحق فقالوا : مادمت تشير فلست بموحد حتى يستولي الحق على إشارتك بافنائها عنك فلايبقى مشير ولاإشارة) [2] ويقول نقلاً عن كتاب باتنجل : (ومن اشتغل بنفسه عما سواها لم يضيع لها نفساً مجذوباً ولامرسلاً ومن بلغ هذه الغاية غلبت قوته النفسية على قوته البدنية فمنح الاقتدار على :

ــ تلطيف البدن حتى يخفى على الأعين .

ــ التمكن من الارادات .

ــ التمكن من انطواء المسافات بينه وبين المقاصد الشاسعة .اهـ ويعقب البيروني : وإلى مثل هذا أشارت الصوفية) [1] .

ومن الفرق التي تأثرت بالتناسخ (النصيرية) و (الدروز) الذين يعتقدون أن مرتكبي الآثام يعودون إلى الدنيا يهوداً أو نصارى أو مسلمين سنيين !! [2] .

رابعاً : أثر اليهودية :

كان الأثر اليوناني قد ساعد في إخراج القالب الحالي للديانة اليهودية إلى جانب ماكان من تحريف وتبديل منذ عصر السبي في عهد نبوخذنصر إذ ظلت اليهودية تعيش قروناً تحت ظل الحكم اليوناني الروماني ، كما كانت منتشرة في الاسكندرية وعلى شواطىء البحر المتوسط حيث الثقافة اليونانية ، كما كان من أحبار اليهود

٢ ــ تاريخ التصوف / عبد الرحمن البدوي / ٣٦ ، ٣٧ .
١ ــ تاريخ التصوف / عبد الرحمن البدوي / ٣٦ ، ٣٧ .
٢ ــ الضحى / أحمد أمين ١ / ٢٤١ .

من تعلم الفلسفة اليونانية وتأدب بآدابها ، فتسربت تلك الثقافة إلى اليهودية ، وحين خالط اليهود المسلمين كانوا يحملون كل هذا التراث الخليط من الديانة المحرفة والفلسفة اليونانية المشوّهة .

والحق أن الأفكار اليهودية بذاتها لم تكن ذات أثر كبير في نشأة فرق مبتدعة في الاسلام بقدر ماكان لشخصيات يهودية الأصل دخلت الاسلام لمحاولة تبديل عقائده وتخريبه من الداخل ونضرب مثالين لهذا الأثر الشخصي اليهودي :

١ ـــ عبد الله بن سبأ : ذلك اليهودي الذي ادعى الاسلام في عهد عثمان ، وقد ولد بصنعاء من أمة سوداء ، وقد تسبب في إثارة الفتنة في عهد عثمان رضي الله عنه عندما توجه إلى مصر وتكلم (بالرجعة) فيها ـــ أي رجعة محمد ﷺ كما في رجعة المسيح عليه السلام آخر الزمان ـــ ثم بوصاية علي رضي الله عنه وألّب الطوائف على عثمان ، وقد أخذت عنه غلاة الشيعة القائلين بألوهية علي وهم المسمّون بالسبأية نسبة إلى هذا اللعين (١) .

٢ ـــ وكان أصل القول بخلق القرآن وبالجبرية (لبيد بن الأعصم) الذي سحر النبي ﷺ ذلك أنه كان يقول بخلق التوراة ـــ وكان يهودياً ـــ فأخذ عنه ذلك ختنه طالوت فأخذه عنه أبان بن سمعان ثم عنه الجعد بن درهم فالجهم بن صفوان ثم بشر المريسي الذي كان من أصل يهودي كذلك .

أما عن انتقال الاسرائيليات إلى كتب التفسير ، فذلك أمر ملحوظ في العديد من التفاسير بالفعل ، مثلما رووه في تفسير سورة يوسف عليه السلام ـــ ولكن ماكان لهذه التفسيرات من أثر فعلي

١ ـــ الطبري وابن الأثير .

في نشأة الفرق إلا من حيث نقلها لما سبق من آراء استغلها المغرضون في رسم مذاهبهم وعقائدهم كالرافضة الذين كانوا أكثر من أخذ عن اليهود في وضع أسس دينهم وعقائدهم كما نقلوا عقيدة البداء المنقولة عن اليهود ـــ أي جواز أن يبدأ الله عز وجل أمراً مستأنفاً فيرجع عن رأيه الأول إلى الثاني تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـــ وكذلك قولهم بالرجعة (١) .

خامساً : أثر النصرانية :

كان التحريف والتبديل قد لعب دوره في النصرانية ـــ كاليهودية ـــ بفعل بولس اليهودي الذي أدخل عقيدة التثليث على دين المسيح عليه السلام ليوفق بينه وبين عقائد الوثنية المنتشرة في بلاد الروم آنذاك ويكون للدين المزيج الغلبة في نهاية الأمر .

وقد عاشت النصرانية ـــ في ثوبها الجديد الزائف ـــ على حدود العالم الاسلامي في عدة أنحاء منه ، فكان في نجران باليمن نصارى يعاقبة على مذهب الرومان ، وكذلك في غسّان كما كان بالحيرة نصارى نساطرة ، إلى جانب الصوامع المنتشرة في أرجاء الجزيرة العربية حيث كان العرب يقابلون الرهبان في صوامعهم في رحلاتهم التجارية ، وقد كان بعض العرب في الجاهلية من النصارى كورقة بن نوفل وقسّ بن ساعدة وأمية بن أبي الصلت الشاعر .

١ ـــ أما ماذكره صاحب ضحى الاسلام في ١ / ٣٣٥ من أن تعرض المسلمين في مباحثهم للنسخ في القرآن كان من تأثير اليهود فهو قول مردود لأن ذلك مبحث خاص بأصول الفقه قال به الشافعي الذي لم يتأثر بيهود أو غيرهم ، كما أن له مبررات تكفي للبحث فيه كالآيات الدالة على ذلك عند دراستها كذلك الأحاديث التي ثبت نسخها ، فلاحاجة لادعاء الأثر اليهودي فيها . يراجع كذلك الحضارة الاسلامية آدم متز / ٢ / ٢٠ ، ٢ / ٢٩ ، ٢ / ٤٦ .

وقد أثرت النصرانية في نشأة الفرق في الاسلام بطريقتين : العامل الفردي أو الشخصي ثم المفاهيم العامة والعقائد .

فمن المفاهيم النصرانية التي تسربت إلى عقول طوائف من المسلمين وأدت بهم إلى (الصوفية) هي نظرة النصارى إلى الدنيا واحتقارهم الكامل لها — في ظاهر الأمر — واعتبار أن النجاة في الرهبانية وهي الاعراض عن العمل والزواج والسعي في الأرض للتوفر على عبادة الله وحده — بزعمهم — مما أدى إلى التأثير على الزهاد والعباد المسلمين — الذين كانوا كنواة للصوفية — فانحرف بهم بعد ذلك إلى الرهبانية التي منع منها رسول الله ﷺ في قوله : (سياحة أمتي الجهاد) [1] وقوله ﷺ : (إن ترهب أمتي الجلوس في المساجد لانتظار الصلاة) [1] وقد قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم ﴾ [2] .

كذلك كان للمفاهيم النصرانية عن (اللاهوت) و (الناسوت) والاتحاد بينهما أثر في تنمية وتشكيل مبدأ الحلول والاتحاد الذي قال به متأخرو الصوفية كالحلاج وابن سبعين وابن عربي ، كذلك مفهوم (الولاية) بالمعنى الصوفي فإنها مذهب نصراني غنوطسي [3] .

وقد أدت المناقشات التي دارت بين المسلمين والنصارى إلى التأثير في مناهج التفكير لدى الفرق المبتدعة وخاصة رؤوسهم .

جاء في كتاب العرب والروم لغازيليق : (وكانت عاصمة الأمويين دمشق مسرحاً قامت عليه كثير من المناقشات الدينية تلك

١ — خرجه ابن المبارك عن عثمان بن مظعون : الاعتصام ١ / ٣٢٥ .
٢ — المائدة / ٨٧ .
٣ — الحضارة الاسلامية / متز / ٢ / ٤٦ .

التي سجلها يوحنا الدمشقي وتيودور أبو قرة وهي معروفة ، وقد رأى البعض أن المذاهب الأولى الخارجة على السنة في الاسلام نشأت من هذه المناقشات الدينية مثل الارجاء والقدرية) [1] .

ويقول الذهبي في ترجمة الفارابي : (ولقي يونس بن متى صاحب المنطق فأخذ عنه وسار إلى حرّان فلزم بها يوحنا بن جيلان النصراني وسار إلى مصر وسكن دمشق) [2] .

كما روى أبو نعيم في (الحلية) : (أن رجلاً قال لعبد الله بن الفرج العابد : ياأبا محمد هؤلاء الرهبان يتكلمون بالحكمة وهم أهل كفر وضلال فمم ذلك ؟ قال : ميراث الجوع ! — متعت بك — ميراث الجوع — متعت بك !) [3] .

كما نقل الذهبي : (قال أحمد بن أبي الحواري : وقلت لراهب في دير حرملة مايحبسك قال : حبست نفسي عن الشهوات قلت : فلم تفعل ذلك ؟ قال : نجد في كتبنا أن بدن ابن آدم خلق من الأرض وروحه خلق من ملكوت السماء فإذا جاع البدن فأطعمه وأراحه أخلد إلى الموضع الذي منه خلق فأحب الدنيا . فحدثت بهذا أبا سليمان الداراني فقال : قاتلهم الله إنهم يصفون) [1] .

وكان مالك بن دينار من أوائل الصوفية الذين اطلعوا على كتب النصارى أو حاوروا كثيراً من الرهبان ، وينقل عنهم في كلامه وخاصة موضوع تعذيب الجسد ، والسياحة في البراري وكان يغشى أديرة النصارى ويديم الاطلاع على الكتاب المقدس [2] .

١ — ص / ٨٣ .
٢ — اعلام النبلاء ١٥ / ٤١٧ .
٣ — تاريخ التصوف / بدوي / ٣٥ .

١ — سير أعلام النبلاء ١٢ / ٨٩ .
٢ — تاريخ التصوف لبدوي / ٢٠٧ .

كما أن المطالع لكتب التاريخ تأخذه الدهشة من نفوذ النصارى في قصور بعض الخلفاء حيث كانوا أطباء لهم في غالب الأحيان كابن بختشتوع طبيب المنصور وجبريل ابنه طبيب المأمون .

والحق أن هدي الاسلام في ترك الاستعانة بالمشركين لهو الحصن الحصين الذي يحمي الدول والمجتمعات الاسلامية من تلوث بيئتها بهذه السموم الفكرية التي رأينا طرفاً من أثرها فيما سبق .

وبعد :

فقد أشرنا في المقدمة إلى هدفنا من هذا البحث — وما يتبعه من الكلام عن الفرق .

— فإنه حتى يظهر الحق فلابد أن يستبين الباطل (والضدّ يعرف بالضدّ) كما قيل ، فإذا جاء الحق زهق الباطل .

وطالما أن الباطل متخف متوار وراء شعارات وأسماء فلن يكون الحق ناصعاً — إلا لمن عصم الله — وهو هدف أسمى .

— ثم إن إظهار عوار المبطلين وجهل الجاهلين وألاعيب المزيفين المبتدعين لهو ظفر في حد ذاته لدين الله تعالى وقد قال الله عز وجل : ﴿ ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ (١) .

فاستبانة سبيل المجرمين هدف بذاته مطلوب بنص كتاب الله تعالى — وهو هدف أسمى .

— ثم طلب النجاة لهؤلاء الشباب الذين خدعتهم الكلمات تارة ، وانخدعوا بما ظنوه (علماً) تارة أخرى سواء تلقفوه من فم

١ — الأنعام / ٥٥ .

كل مدعٍ أو جاهلٍ ، أو استقوه بأنفسهم من الكتب دون أن يتسلحوا بشرائط الفهم الصحيح أو أن يلبسوا منظار الاتساع في الرؤية الشمولية للاسلام وللواقع على حد سواء ، ولا ننكر أن من هؤلاء الشباب — وهم كثر — من هو مخلص متفان متعطش للفهم الصحيح والنظر الصائب والتوجيه المثمر — وهو هدف أسمى .

— ثم أن يكثر أهل السنة ، ويظهروا على أهل البدع والأهواء وأن يكون (الاتباع) هو طريق المسلمين لا (الابتداع) ، وأن يعرف الناس فضل أهل السنة على من سواهم ممن انتسب إلى الاسلام ؛ فبهذا وردت الآثار المستفيضة كما جاء عن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ (٢) فأما الذين ابيضت وجوههم فأهل السنة والجماعة وأولوا العلم وأما الذين اسودت وجوههم فأهل البدع والضلالة (٣) .

فان يكثر المنتسبون لهذا الخط المبارك ، خط السلف ، وأهل السنة والجماعة لهو هدف أسمى .

— وان يكبت الله تعالى أهل البدع والضلالة ، ويحبسهم في قماقمهم ، ويسوّد وجوههم في الدنيا قبل الآخرة ، ويظهر تلونهم في دين الله تعالى ، وجهلهم بكلامه تعالى وانحرافهم عن سنة نبيه ﷺ لهو هدف أسمى .

وإننا لندعو الله تعالى مخلصين أن يجعل الحق هو هدفنا وأن ينزع الهوى من نفوسنا لنرى الحق حقاً والباطل باطلاً .

٢ — آل عمران / ١٠٦ .

٣ — الأثر / ٧٤ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للحافظ اللالكائي — تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان ص ١ / ٧٢ .

﴿ ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ (١) .

اللهم رب جبرائيل وميكال وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .



١ ــ آل عمران / ٨ .

ثبت المصادر

الإمام أحمد : المسند

سيد قطب : في ظلال القرآن
خصائص التصور الاسلامي

ابن تيمية : مجموع الفتاوى
اقتضاء الصراط المستقيم
الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح
درء تعارض العقل والنقل

ابن خلدون : المقدمة

ابن كثير : تفسير القرآن العظيم
البداية والنهاية

ابن القيم : إغاثة اللهفان
أعلام الموقعين

الشاطبي : الموافقات
الاعتصام

الذهبي : المنتقى من منهاج الاعتدال
سير أعلام النبلاء

ابن حزم : الفصل في الملل والنحل

الشهرستاني : الملل والنحل

الطبري : تاريخ الرسل والملوك

اللالكائي : شرح أصول اعتقاد أهل السنة
تحقيق أحمد سعد حمدان

القاسمي : محاسن التأويل
الآمدي : الاحكام في أصول الأحكام
الغزالي : المستصفى في أصول الفقه
الجويني : غياث الأمم في التياث الظلم
ابن نجيم : الأشباه والنظائر
السيوطي : الأشباه والنظائر
ولي الدين الدهلوي : الفوز الكبير
محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق
عبد السلام هارون : تهذيب السيرة
أحمد أمين : فجر الاسلام
ضحى الاسلام
ظهر الاسلام
محمد أبو زهرة : أصول الفقه
جودت سعيد : حتى يغيروا ما بأنفسهم
عبد الرحمن بدوي : تاريخ التصوف
آدم متز : الحضارة الاسلامية

فهرست المواضيع

طبـاعة
دار النـور
للطبـاعة والنشر والتوزيع

5100 Aachen, Eilendorfer Straße 161
Telefon 02 41 / 52 00 10

Printed in Germany